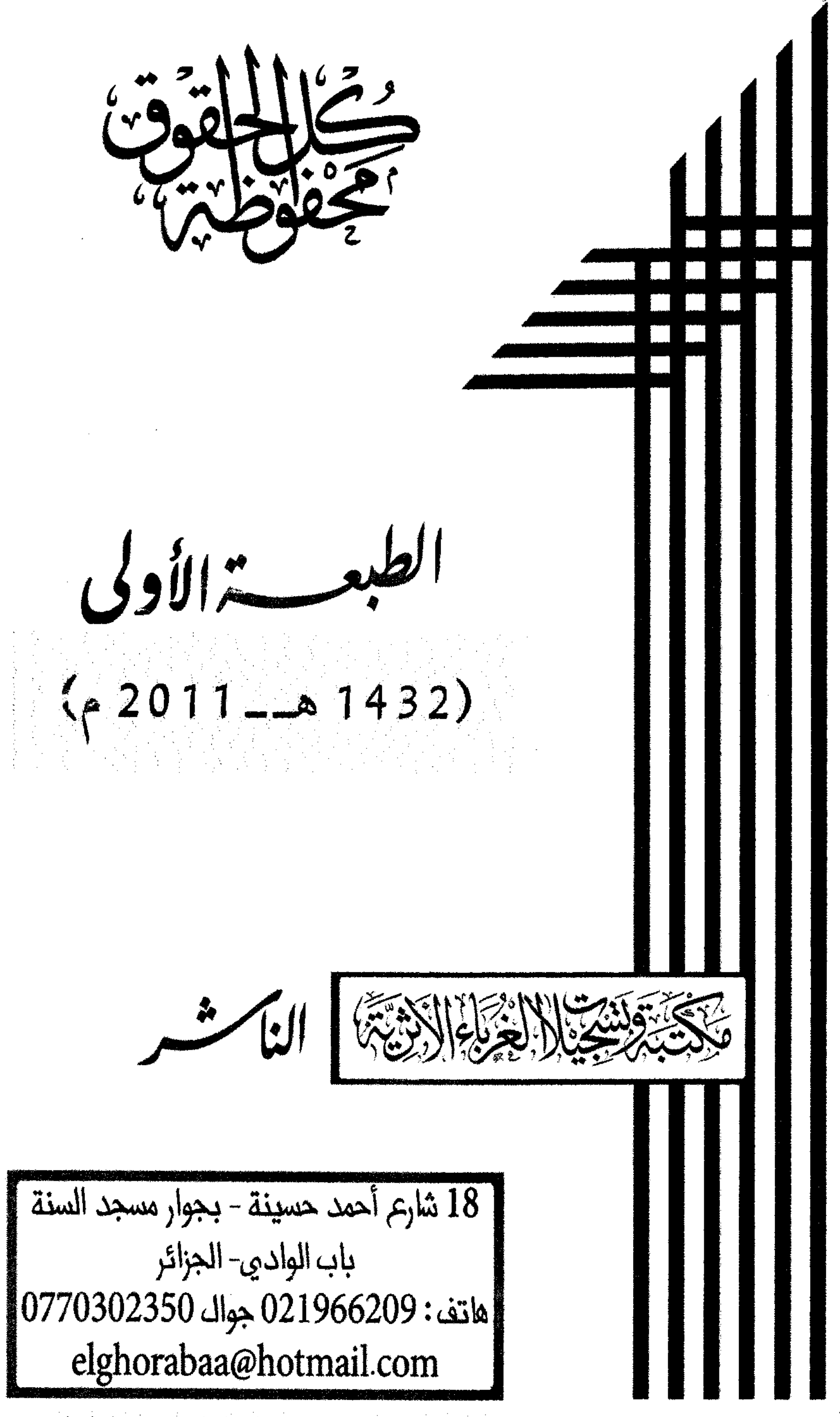


جمع وترتيب

أبي عبد المحسن علي دار الجزائري



الطبعة الأولى

(1432 هـ - 2011 م)

الناشر

مكتبة ونشريات الغرباء الأثرية

18 شارع أحمد حسينة - بجوار مسجد السنة

باب الوادي- الجزائر

هاتف: 021966209 جوال 0770302350

elghorabaa@hotmail.com

ali.derrar@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقدّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾(٣).

أما بعد، فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ،

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) سورة النساء.

(٣) سورة الأحزاب.

وشر الأمور محدثاتها،وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد؛ فإنّ الله لم يخلق الخلق إلاّ لعبادته جلّ في علاه، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

ثم إنّه ـ جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه ـ بيّن لعباده أنّه لا يقبل من أعمالهم وتَقَرُّباتهم إلاّ ما وزنوه بميزانين وقيّدوه بقيدين:

الأول: إخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

الثاني: إيقاعها على الوجه الذي يحبه هو سبحانه ويرضاه؛ وذلك بمتابعة سنة النبي ﷺ فيها.

فعن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول. «**إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرئ ما نوى**»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من عمِل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ**»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾[4].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي ليختبركم أيّكم أحسن عملا، ولم يقل أكثر عملا، بل أحسن عملا، ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عزّ وجلّ، على

(١) سورة الذاريات.

(٢) البخاري في «الصحيح»(١)، ومسلم في «الصحيح» (١٩٠٧).

(٣) مسلم في «الصحيح» (١٧١٨).

(٤) سورة هود، من الآية ٧.

شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين حبِط وبطَل»[1].

ثمّ بيّن سبحانه لعباده أنّ الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة لا تكون ـ بعد العلم بما أوجبه سبحانه عليهم، ثم الإتيان به على ما يحبه ويرضاه ـ إلاّ مع الدعوة إلى ذلك كلّه، والتواصي عليه، ولا يمكن ذلك إلا بالصبر والمصابرة، فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾[2].

بل الدعوة، والتواصي بالخير هي من أهم أسباب خيريّة هذه الأمّة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١٠﴾[3].

وقد أمر الله سبحانه بها عباده، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾[4].

وخير من قام بأعباء هذه الدعوة، والوصية بالحق هم أنبياء الله ورسله صلوات ربي وسلامه عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[5].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»، لابن كثير (٢/ ٥٧١).

(٢) سورة العصر.

(٣) سورة آل عمران.

(٤) سورة آل عمران.

(٥) سورة النحل، من الآية ٣٦.

وخير من قام بها بعدهُم؛ العلماء العاملون المتَّقُون المَرْضِيُّون، بل الدّعوة ووصيّة الناس بالخير هي الميراث الذي ورِثوه عن نبينا ﷺ، فقد قال ﷺ: «**إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يوَرِّثوا دينارا ولا درهما، وإنّما ورّثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظّ وافر**»[1].

فكان حرياً بالأمة أن تسترشد بإرشاداتهم، وتستنير بآرائهم، وتستكثر من وصاياهم في كلّ ما يتعلّق بأمر دينها، بل ودنياها أيضا، وخاصةً في الدعوة إلى الله ﷻ التي هي من أخص خصائص العلماء.

فإذا عرفت الباعث على تحرير هذه الكلمات، اعلم أنّ الإحاطة بموضوع وصايا العلماء يصعب بمكان، لاتساعها وتشعّبها ممّا لا تتحمّله هذه العُجالة، فسوف أحاول أن أذكر وأبيّن بعض المعالم العامّة لهذا الموضوع، مختارا وصيّتين شاملتين نافعتين بليغتين.

أما الأولى فقد جاء ذكرها في القرآن العظيم، قصّها الله على عباده لتكون لهم فيها العبرة والعظة، من رجل صالحٍ حكيمٍ وبليغ.

وأمّا الثانية فحفظها لنا التاريخ، من عالمٍ جليلٍ من علماء المسلمين، واعظٍ بليغٍ، اتفق المسلمون على علُوِّ شأوه ورفعة منزلته في الوعظ والبلاغة.

كلاهما يوصي فيها ابنَه، قرّةَ عينه، وفلذةَ كبده، وبهجةَ نفسه، فكان حريّا بهذه الوصايا أن تكون نابعة عن إخلاصٍ في النصح وإمعانٍ في الرفق.

---

(١) أبو داود في «السنن» (٣٦٤١)، والترمذي في «الجامع» (٢٦٨٢)، وابن ماجه في «السنن» (٢٢٣)، وأحمد في «المسند» (٢١٦١٢)، وقال الألباني: صحيح.

فكانت خطة البحث كالآتي:

المقدّمة.

الفصل الأوّل: التعاريف، وفيه مبحثان:

المبحث الأوّل: تعريف الوصيّة لغة واصطلاحا.

المبحث الثاني: التعريف بمصطلح «العلماء».

الفصل الثاني: الوصايا في القرآن والسنّة وأهميّتها.

المبحث الأوّل: الوصايا في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: الوصايا في السنّة المطهّرة.

الفصل الثالث: دروس دعوية من وصيّة لقمان لابنه.

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: الوصيّة بالتوحيد والتحذير من الشرك.

المبحث الثاني: الوصيّة بالوالدين.

المبحث الثالث: الوصيّة بالصَّلاة.

المبحث الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الخامس: الوصيّة بالابتعاد عن الاختيال والفخر.

المبحث السادس: إظهار التواضع في المشي والكلام.

الفصل الرابع: وصيّة ابن الجوزي لابنه؛ وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأوّل: إعمال الفكر في الغاية من الخلق، والحثّ على طلب لفضائل.

المبحث الثاني: الوصيّة بطلب العلم والحث على الاجتهاد في الطاعة، وإعطاء المثل من نفسه.

المبحث الثالث: التعجيل بالتوبة، واستدراك ما فات، واغتنام العمر.

المبحث الرابع: الوصيّة بالعزلة والزهد.

المبحث الخامس:الوصيّة بالتقوى فإنّها خير زاد.

المبحث السادس: ذكر بعض الكتب المفيدة.

المبحث السابع: الوصيّة بحفظ حقوق الناس، ومراعاة عواقب الأمور.

الخاتمة.

الفصل الأوّل

في التعاريف

المبحث الأوّل: تعريف الوصيّة لغةً وشرعًا.

المبحث الثاني: التعريف بمصطلح «العلماء».

المبحث الأوّل
تعريف الوصيّة لغةً وشرعًا

*** أوّلًا: تعريف الوصيّة لغةً:**

الوَصِيَّةُ تطلق لغةً بمعنى العَهْدِ إلى الغير في القيام بأمرٍ، فالوَصِيَّةُ ما يُوصى به، جمعها وَصَايا، وأصلها: وَصَيْتُ.

ووَصَيْتُ الشّيء بالشّيء أَصِيهِ من باب وَعَدَ: وَصَلْتُه.

قال أبو عبيد: وصيت الشيء ووصلته سواء.

ووصّى إليه وله بشيءٍ: جعله له.

ووصّى فلانا وإليه: عهِد إليه.

ووصّى فلانا جعله وصيَّه يتصرف في أمره وماله وعياله بعد موته.

ووصّى بالشيء فلانا: أمره به وفرضه عليه، يقال وصّى الله الناس بكذا وكذا وأَوْصَيْتُ إليه بمال جعلته له.

وأَوْصَيْتُهُ بولده استعطفته عليه وهذا المعنى لا يقتضي الإيجاب.

وأوصى فلاناً إليه: جعله وصيَّه يتصرف في أمره وماله وعياله بعد موته وعهد إليه.

وأوصى إليه وله بشيء: جعله له.

وأوصى به فلانا: استعطفه عليه.

وأوصى فلانا بالشيء أمره به وفرضه عليه يقال أوصى الله الناس بكذا وكذا أَوْصى الرجلَ ووَصَّاه عَهِدَ إِليه.

فـ: «وصّى» و«أوصى» معناهما متقاربٌ(١).

*** ثانياً: تعريف الوصيّة في الشرع.**

تُطلق الوصيّة في الشرع، ويُراد بها عموماً أحدُ معنيين؛ خاصٌ، وعام.

فأما على **المعنى الخاص**: فتُعرّف بأنها «عهدٌ خاصٌّ مضافٌ إلى ما بعد الموت»(٢).

أو «الأمر بالتصرف بعد الموت والوصية بالمال هي التبرع به بعد الموت كأن يقول: إذا متّ فأعطوا فلانا من مالي كذا، أو أعطوا فلانا قطعة من أرض قدرها كذا»(٣).

وعلى هذا المعنى جاء:

قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾(٤).

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ

---

(١) انظر: «لسان العرب»، لابن منظور (١٥/ ٣٢٠ ـ ٣٢١)، و«المصباح المنير»، لأحمد الفيومي (٢/ ٩١٢)، و«تاج العروس»، للزبيدي (٤/ ٢٠٧).

(٢) «نيل الأوطار» للشوكاني (١١/ ٢٥٣).

(٣) «العدّة شرح العمدة» للمقدسي (ص ٢٥٤).

(٤) سورة البقرة.

﴿... ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢﴾[1].

وقوله ﷺ: «ما حقُّ امرئٍ مسلم يبيت ليلتين وله شيء يريد أن يوصيَ فيه إلاّ ووصيَّته مكتوبة عند رأسه»[2].

وقوله: «**إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث**»[3].

وأمّا على **المعنى العامّ**: فتُعَرَّف بأنّها «العهد بالشيء على وجه الاهتمام»[4]، كما جاء في تفسير القرطبي: «الوصيّة الأمر المؤكّد المقدور»[5].

وقال الرّاغب الأصفهاني: «الْوَصِيَّةُ التَّقَدُّمُ إِلَى الْغَيْرِ بِمَا يَعْمَلُ بِهِ مُقْتَرِنًا بِوَعْظٍ»[6].

وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾[7]، وقوله ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيرا**»[8].

---

(١) سورة النساء.

(٢) البخاري في «الصحيح» (٢٧٣٨)، ومسلم في «الصحيح» (١٦٢٧).

(٣) الترمذي في «الجامع» (٢١٢١)، وابن ماجه في «السنن» (٢٧١٢)، وقال الألباني: صحيح.

(٤) انظر: «القول المفيد على كتاب التوحيد» لابن عثيمين (١/ ٣٩).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٩/ ١١١).

(٦) «مفردات ألفاظ القرآن» (ص ٨٧٣).

(٧) سورة البقرة.

(٨) البخاري في «الصحيح» (٣٣٣١)، ومسلم في «الصحيح» (١٤٦٨).

* ثالثاً: العلاقة بين التعريف اللغوي والتعريف الشرعيّ.

أما على المعنى العام، فتعريف الوصيّة اللغوي هو نفسه تعريفها شرعا، وأما على المعنى الخاص فتعريفها الشرعي نجده يتعلّق ببعض أفراد ما يشمله التعريف اللغوي، إذ أنّ الوصيّة لغة هي مطلق العهد بالشيء على وجه الاهتمام، كما مرّ قريبا، وأما على استعمالها في الشرع فيراد بها العهد بمال بعد الموت.

فيُقيّد المعنى اللغوي العام بقيدين:

الأوّل: أن يكون العهد أو التبرع بمال.

والثاني: أن يكون تمليك ذلك للموصى إليه بعد الموت لا قبله.

ومجال بحثي هو الوصيّة بمعناها العامّ الذي يوافق المعنى اللغويّ، أما على المعنى الآخر الخاص، فهو ما يتطرق إليه الفقهاء ـ ولا يكاد يخلو منه كتاب من كتب الفقه ـ تحت ما يُسمى بالوصايا.

المبحث الثاني

التعريف بمصطلح «العلماء»

لقد اعتبرت الشريعة الإسلاميّة للعلماء منزلةً ليست لغيرهم من النّاس، وجعلت لهم مقاماً رفيعاً، وأقامتهم أدلاّء للنّاس على أحكام الله.

*** أوّلاً: من هم العلماء؟**

«العلماء هم ورثة الأنبياء، فإنّ الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارا ولا درهما، وإنّما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»[1].

هم الدعاة إلى الله ﷻ، المبلغون عن رسوله ﷺ، «ولما كان التبليغ عنه نوعين؛ تبليغ ألفاظ ما جاء به، وتبليغ معانيه؛ كان العلماء من أمتّه منحصرين في قسمين:

أحدهما: حفاظ الحديث وجهابذته، ونقّاده الذين هم أئمة الأنام، وزوامل الإسلام، الذين حفظوا على الأمّة معاقد الدين ومعاقله، وحَمَوْا من التغيير والتكدير موارده ومناهله، حتى ورد من سبقت له من الله الحسنى تلك المناهل صافية من الأدناس لم تشُبها الآراء تغييرا، ووردوا فيها: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾[2].

---

(١) أبو داود في «السنن» (٣٦٤١)، وابن ماجه في «السنن» (٢٢٣)، وغيرهما، وقال الألباني: صحيح.

(٢) سورة الإنسان.

وهم الذين قال فيهم الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ في خطبته المشهورة، في كتابه في «الرد على الزنادقة والجهمية»: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم يدْعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيُون بكتاب الله تعالى الموتى، ويبصّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيَوْهُ؟ وكم من تائه قد هدَوْهُ؟ فما أحسن أثرهم على الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوِيَة البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهّال الناس بما يُشَبّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتنة المضلّين»[1].

القسم الثاني: «فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خُصُّوا باستنباط الأحكام، وعُنُوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أَفْرَضُ عليهم من طاعة الأمّهات والآباء، بنصّ الكتاب.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩ ﴾[2]»[3].

---

(١) «الردّ على الزنادقة والجهمية» (ص١٧٠).

(٢) سورة النساء.

(٣) «إعلام الموقعين عن ربّ العالمين» لابن القيّم (٢/ ١٣ـ ١٤).

فالعلماء هم العارفون بشرع الله ، المتفقّهون في دينه، العاملون بعلمهم على هدى وبصيرةٍ، الذين وهَبَهُم الله الحكمة، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾[1].

والعلماء هم الذين جَعَلهم الله عزّ وجلّ عِماد النّاس في الفقه والعلم، وأمور الدّين والدنيا.

والعلماء هم أئمة الدين، نالوا هذه المنزلة العظيمة بالاجتهاد والصّبر، وكمال اليقين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

والعلماء هم الفرقة التي نَفَرَت من هذه الأمّة لتتفقّه في دين الله عزّ وجلّ، ثمّ تقوم بواجب الدّعوة، ومهمّة الإنذار، ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[3].

والعلماء هم هُداة النّاس الذين لا يخلوا زمانٌ منهم، حتّى يأتي أمر الله، وهم رأس الطائفة المنصورة إلى قيام السّاعة، يقول الرسول ﷺ «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»[4].

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «وأما هذه الطائفة فقال البخاري هم أهل العلم، وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم، قال

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة السجدة.

(٣) سورة التوبة.

(٤) البخاري في «الصحيح»(٦٨٨١)، ومسلم في «الصحيح» (٥٠٥٩).

القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث. قلت: ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونون متفرقين فى أقطار الأرض»(١).

وأيّاً ما كان القول في هذه الطائفة، فإنّ من المتّفق عليه أنّ العلماء هم رؤساؤها المقدَّمون فيها، وغيرهم من النّاس تبع لهم.

والعلماء هم رأس الجماعة التي أُمرنا بلزومها، وحُذِّرنا من **مفارقتها**.

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ الثَّيِّبُ الزَّانِ وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»(٢).

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**»(٣).

والعلماء هم أولو الأمر الذين أمرنا بطاعتهم: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ**﴾(٤)، ولئن جاء أنهم الأمراء أيضا، «فالتحقيق أنّ الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإنّ

(١) «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» للنووي (١٣/ ٦٨ ـ ٦٩).

(٢) مسلم في «الصحيح» (٤٤٦٨).

(٣) البخاري في «الصحيح» (٦٦٤٦)، ومسلم في «الصحيح» (٤٨٩٦).

(٤) سورة النساء، من الآية رقم ٥٩.

الطّاعة إنما تكون في المعروف، وما أوجبه العلم، فكما أنّ طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء...»[1].

*** ثانياً: كيف يُعرف العلماء؟**

العالِم هو: «من اتّصف بالعلمَ والصدق، فيكون عالماً بما يبلِّغ، صادقا فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضيّ السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السرّ والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله»[2].

قال الشاطبي رحمه الله: «وللعالم المتحقق بالعلم أمارات وعلامات»، ثم قال: «وهي ثلاث:

إحداها: العمل بما علم؛ حتى يكون قوله مطابقا لفعله، فإن كان مخالفا له؛ فليس بأهل لأن يؤخذ عنه، ولا أن يقتدى به في علم، وهذا المعنى مبيّن على الكمال في كتاب الاجتهاد، والحمد لله.

والثانية: أن يكون ممن ربّاه الشيوخ في ذلك العلم؛ لأخذه عنهم، وملازمته لهم، فهو الجدير بأن يتّصف بما اتّصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأن السلف الصالح.

فأوّل ذلك ملازمة الصحابة ﷺ لرسول الله ﷺ، وأخذهم بأقواله وأفعاله، واعتمادهم على ما يرد منه، كائنا ما كان، وعلى أيّ وجه صدر، فهم فهموا مغزى ما أراد به أوّلا حتى علموا وتيّقنوا أنه الحقّ الذي لا يعارض، والحكمة التي لا ينكسر قانونها، ولا يحوم حول حمى كمالها، وإنّما ذلك بكثرة الملازمة، وشدّة المثابرة»[3].

---

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ١٦).

(٢) نفسه (٢/ ١٦).

(٣) «الموافقات» للشاطبي (١/ ١٤١ـ١٤٢).

ثم قال: «**والثالثة**: الاقتداء بمن أخذ عنه، والتأدّب بأدبه، كما علمت من اقتداء الصحابة بالنبي ﷺ، واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كلّ قرن، وبهذا الوصف امتاز مالك عن أضرابه ـ أعني: بشدّة الاتّصاف به ـ، وإلاّ؛ فالجميع ممن يُهتدى به في الدين، كذلك كانوا، ولكن مالكا اشتهر بالمبالغة في هذا المعنى، فلما تُرك هذا الوصف، رفعت البدع رؤوسها، لأنّ ترك الاقتداء دليل على أمرٍ حدث عند التارك، أصله اتّباع الهوى...»[1].

والعلماء يُعرفون برسوخ أقدامهم في مواطن الشّبه، حيث تزيغ الأفهام، فلا يسلَمُ إلاّ من أتاه الله العلم، أو من اتّبع أهل العلم.

فالعلماء أطوادٌ ثابتةٌ، لأنهم أهل اليقين والرّسوخ الذي اكتسبوه بالعلم.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «إنّ الرّاسخ في العلم لو وردت عليه من الشّبه بعدد أمواج البحر، ما أزالت يقينه، ولا قدحت فيه شكّاً، لأنّه قد رسخ في العلم، فلا تستفِزُّه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردّها حرسُ العلم وجيشُه مغلولةً مغلوبةً»[2].

والعلماء يُعرفون بنُسُكهم وخشيتهم لله تعالى، لأنّهم أعرف النّاس بالله، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[3].

ويُعرفون باستعلائهم على الدنيا وحظوظها، قال الإمام مالك رحمه الله: «الحكمة والعلم نورٌ يهدي به الله من يشاء، وليس بكثرة المسائل، ولكن عليه

---

(١) «الموافقات» للشاطبي (١/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

(٢) «مفتاح دار السعادة ومنشور أهل الولاية» لابن القيّم (١/ ٤٤٢).

(٣) سورة فاطر، من الآية ٢٨.

علامة ظاهرة: وهو التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود»[1].

إنّ العلماء بهذه الصفات وغيرها، يعرفهم النّاس، فأيّما رجل رأيت المعتبرين في الأمّة وجمهورها من أهل الحقّ قد اعتبروه عالماً، ورأوا له ريادته وعلمه، فهو عالمٌ.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «ومن له في الأمّة لسان صدقٍ عامٍّ، بحيث يُثنى عليه ويُحمد في جماهير أجناس الأمّة، فهؤلاء أئمّة الهدى، ومصابيح الدُّجى»[2].

وهذا حقٌّ، فالمسلمون شهداء الله في أرضه.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبي ﷺ: «**وجبت**»، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال: «**وجبت**» فقال عمر بن الخطاب ﷺ: ما وجبت؟ قال: «**هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض**»[3].

وممّا يُعرف به العالم، شهادة مشايخه له بالعلم، فقد دأب علماء المسلمين من سلف هذه الأمّة ومن تبِعهم بإحسانٍ على توريث علومهم لتلامذتهم، الذين يتبوّءون من بعدهم منازلهم، وتصبح لهم الرّيادة والإمامة في الأمّة، ولا يتصدّر هؤلاء التلاميذ حتّى يروا إقرار مشايخهم لهم بالعلم، وإذنهم لهم بالتّصدّر والإفتاء والتّدريس.

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «ما أجبتُ في الفتوى حتى سألتُ من هو أعلم منّي: هل يُراني موضعا لذلك؟ سألت ربيعةَ، وسألت يحيى بن سعيد،

---

(١) انظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٤/ ٢٧٣).

(٢) «مجموعة الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٤٣).

(٣) البخاري في «الصحيح» (١٣٠١).

فأمراني بذلك» ثم قال: «لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه»[1].

وقال رحمه الله: «ما أفتيتُ حتّى شهِد لي سبعون أنّي أهلٌ لذلك»[2].

وممّا يدلّ على علم العالِم وفضله، دروسه وفتاويه ومؤلّفاته.

قال الإمام أبو طاهر السِّلفي عن الإمام الخطّابي: «وأمّا أبو سليمان الشارح لكتاب أبي داود، فإذا وقف مُنصِفٌ على مصنّفاته، واطّلع على بديع تصرّفاته في مؤلّفاته، تحقّق إمامته، وديانته فيما يورده، وأمانته، وكان قد رحل في الحديث، وقراءة العلوم، وطوَّف، ثمّ ألّف في فنونٍ من العلم وصنّف»[3].

هذه بعض الدلائل الدالّة على العالِم وفضله، أمّا المناصب ونحوها فهي ليست الدليل على العلم.

إنّ العلماء لا يُحدّدون ويُختارون عن طريق الانتخاب، ولا عن طريق التّعيين الوظيفي، فكم من عالمٍ في تاريخ الأمّة تصدَّر وعلا ذكره، وأصبح إماماً للأمّة كلِّها، وهو لم يعرف المناصب، وما الإمام أحمد، وشيخ الإسلام ابن تيمية إلاّ مثلان من هذا التاريخ الطويل للأمّة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «المنصب والولاية لا تجعل من ليس عالماً مجتهداً، عالماً مجتهداً، ولو كان الكلام في العلم والدِّين بالولايات والمناصب، لكان الخليفة والسلطان أحقّ بالكلام في العلم والدِّين، وبأن يستفتيه النّاس

---

(١) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (ص٦٩٠).

(٢) نفسه.

(٣) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٧/ ٢٤ـ٢٥).

ويرجعوا إليه فيما أشكل عليهم في العلم والدِّين، فإذا كان الخليفة والسلطان لا يدّعي ذلك لنفسه، ولا يُلزم الرّعيّة حكمَه في ذلك بقولٍ، إلاّ بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، فمن هو دون السلطان في الولاية أولى بأن لا يتعدّى طورَه...»[1].

وهذا لا يعني أنّ كلّ من عُيِّن في منصبٍ علميّ ليس بعالم، بل المراد: أنّ المنصب ليس دليلا على العلم، وإلاّ فإنّ الشأن عندما يكون الحاكم خيِّراً، أن يكون الولاة، والقضاة، والمفتون كذلك، بل قد يوجد في عهد ظالمٍ، قضاة عادلون، ومفتون ثقات.

ثمّ لا بدّ من التفريق بين العلماء وغيرهم؛ من أمثال القرّاء، أو المثقّفين، أو المفكّرين، فالفتوى، والقضاء، وتعليم العلم، إنّما هو توقيع عن الله ﷻ، فلا ينبغي إلاّ من العلماء، وتولّي أشباههم مِمّن ليسوا منهم إنّما هو قطعٌ لطريق العامة عن الخير، وافتيات على حقوق أهل العلم[2].

ولْيعلم المفتي عمن ينوب في فتواه، ولْيوقن أنّه مسؤول غدا وموقوف بين يدي الله[3].

---

(١) «مجموعة الفتاوى» لابن تيمية (٢٧/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧).

(٢) انظر للمزيد: «قواعد في التعامل مع العلماء» لعبد الرحمن بن معلا اللويحق، فإنّه مفيد.

(٣) «إعلام الموقّعين» لابن القيّم (٢/ ١٧).



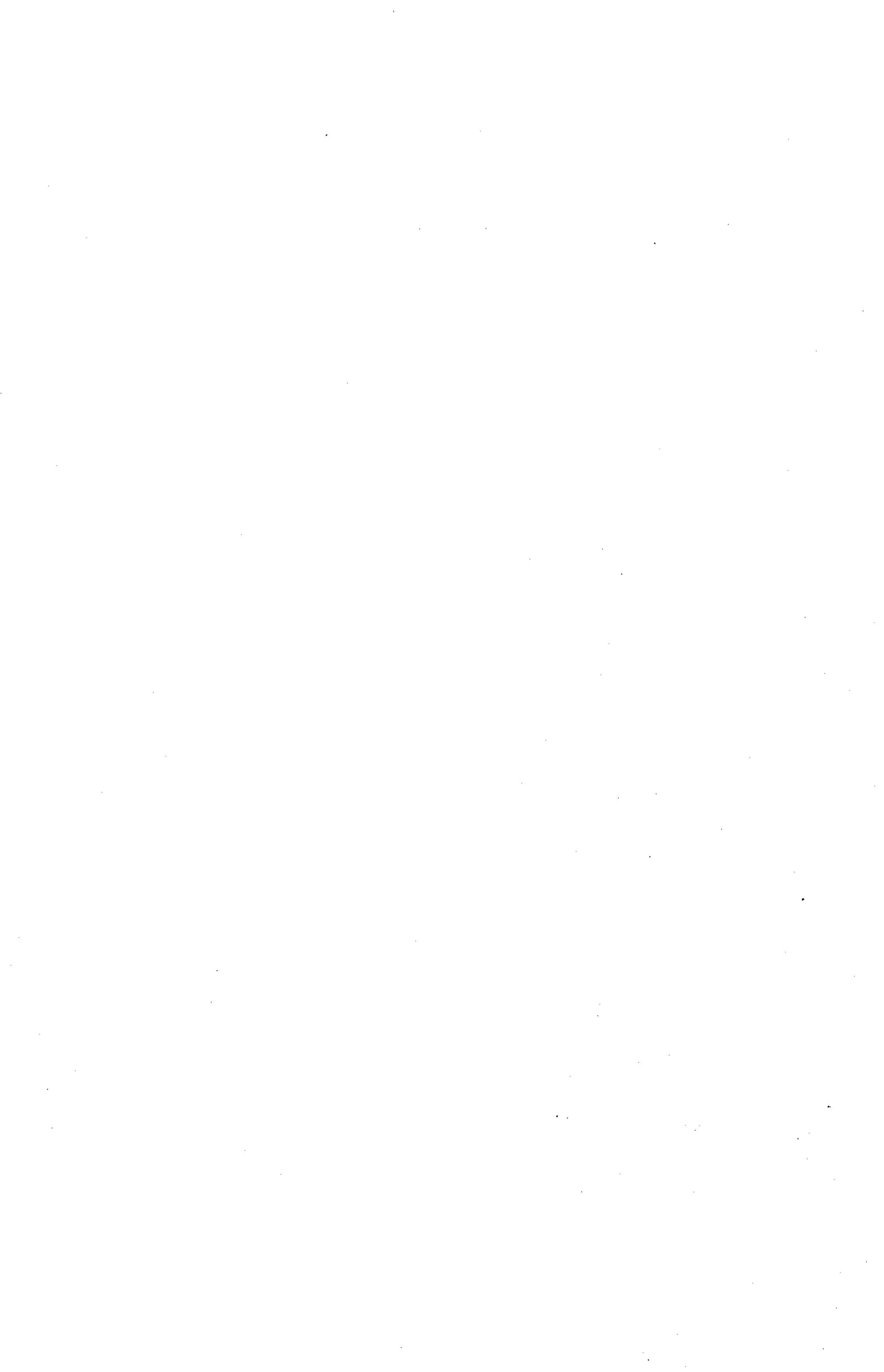
الفصل الثّاني

الوصايا في القرآن والسنّة وأهميّتها

وفيه:

المبحث الأوّل: الوصايا في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: الوصايا في السنّة المطهّرة.



المبحث الأوّل

الوصايا في القرآن الكريم

ينتج لنا ممّا سبق من التعاريف، أنّ حقيقة الوصيّة في الشرع ـ على المعنى الذي أتطرّق إليه في هذا البحث ـ لا تعدو أن تكون أسلوباً من أساليب الدعوة إلى الله تعالى.

واستعمال هذا الأسلوب في القرآن الكريم، هو ممّا يدلّ على أهميّته، وسأعرض بعض الأمثلة من ذلك فيما يلي:

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[1].

وقال جلّ جلاله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾[2].

وقال جلّ وعزّ: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة النساء.

﴿ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾[2].

وقال أيضاً: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[4].

وقال عزّ وجلّ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾[5].

وقال جل ثناؤه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾[6].

---

(١) سورة الأنعام.

(٢) سورة الأنعام.

(٣) سورة الأنعام.

(٤) سورة العنكبوت.

(٥) سورة لقمان.

(٦) سورة الشورى.

وقال تقدّست أسماؤه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾[1].

فهذا شيءٌ من وصايا ربِّ العالمين إلى عباده المخلوقين، من الله الذي لا إله إلاّ هو الغنيّ عنهم غنىً مطلقاً، إلى الضعفاء العاجزين، الفقراء إليه فقراً مطلقا، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾[2].

والمتأمِّل يرى أنّ مدار هذه الوصايا، وقُطب رحاها، إنّما هو التوحيد، إذ هو حقّ الله ﷻ على العبيد، فوصّى الله سبحانه عباده بالإسلام، وبالتّقوى، وبالابتعاد عن الشرك، ووصّى بالوالدين لعظم حقّهما، وبالابتعاد عن كبائر الآثام لأنها تقدح في كمال التوحيد.

فالوصيّة هي العهد بالشيء على وجه الاهتمام ـ كما مرّ قريبا ـ، والتوحيد هو أهمّ ما أمر الله به في كتابه، وعَهِد به إلى عباده.

بل إنّ «القرآن:

ـ إمّا خبرٌ عن الله تعالى، وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، فهو التّوحيد العِلميّ الخبريّ.

ـ وإمّا دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلعُ ما يُعبد من دونه، فهو التّوحيد الإراديّ الطّلبيّ.

---

(١) سورة الأحقاف.

(٢) سورة فاطر.

ـ وإمّا أمرٌ ونهيٌ، وإلزام بطاعته وأمره ونهيه، فهو حقوق التّوحيد ومكمِّلاته.

ـ وإمّا خبرٌ عن إكرام أهل التّوحيد، وما فُعِل بهم في الدنيا، وما يُكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده.

ـ وإمّا خبرٌ عن أهل الشرك وما فُعل بهم في الدنيا من النّكال، وما يحلُّ بهم في العُقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التّوحيد.

فالقرآن كلُّه في التّوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم[1].

---

(١) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» لابن القيم (٣/ ٣٣٢).

المبحث الثاني
الوصايا في السنّة المطهّرة

لقد تعدّدت الوصايا من رسولنا الكريم ﷺ لأصحابه المرضيين، وذلك لما كان عليه ـ صلوات ربّي وسلامه عليه ـ، مِن حرصٍ على نفع عباد الله وهدايتهم للحقّ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

والنبي ﷺ اجتمعت فيه صفات لم تجتمع في غيره من هذه الأمّة، فهو أصدق الناس فيما يقول، وأعلم الناس بما يقول، وأحرص الناس على هداية الناس، وأفصح الناس، فكان حَريًّا بكلّ مسلم مؤمن صادق أن يهتمّ بوصاياه ﷺ لأن الخير كلّه فيها.

كما أنها تعدّدت كيفيّة وصيّته لأصحابه ﷺ، فتارةً يكون هو المبتدئ بها، ثمّ قد يكون ذلك لسببٍ ما زائدٍ على أهميّة الموصى به، أو دونه.

فعن ابن عمر قال : خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال: «**أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين**

---

(١) سورة التوبة.

يلونهم، ثم يفشوا الكذب، حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يَخْلُوَنَّ رجلٌ بامرأة إلاّ كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإنّ الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن»[(١)].

وعن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس، ثم بكى حتى بل دمعه الحصى، فقلت: يا ابن عباس، وما يوم الخميس؟ قال: اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه، فقال: «**ائتوني أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدي**»، فتنازعوا وما ينبغِي عند نبِيٍّ تنازع، وقالوا ما شأنه أَهَجَرَ اسْتَفْهِمُوهُ، قَالَ: «**دَعُونِي، فَالَّذِي أنا فيه خيرٌ، أوصِيكم بثلاث؛ أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم**»، قال وسكت عن الثالثة أو قالها فأُنْسِيتُها[(٢)].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: مرّ أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال ما يبكيكم؟ قالوا ذكرنا مجلس النبي ﷺ منّا فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك قال فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد قال فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أوصيكم بالأنصار فإنهم كِرشي وعَيْبَتي، وقد قضَوْا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**»[(٣)].

وعن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع

---

(١) الترمذي في «الجامع» (٢١٦٥)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) مسلم في «الصحيح» (٤٣١٩).

(٣) البخاري في «الصحيح» (٣٥٨٨).

مع رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال: «**استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك، إلاّ أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مُبَرِّح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، إنّ لكم من نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن**»(١).

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «**منْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَىْءٍ فِى الضِّلَعِ أَعْلاَهُ إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا**»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «**ما زال يوصيني جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه**»(٣).

وتارةً تكون وصيّته ﷺ إثرَ طلبٍ من أصحابه ﷺ، فيسارع صلوات ربّي وسلامه عليه إلى تقديمها حسب أهميّة الموصى به، وحاجة الموصى.

فعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجلٌ: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع**

---

(١) ابن ماجه في «السنن» (١٨٥١)، وقال الألباني: حسن.

(٢) ابن ماجه في «السنن» (١٨٥١)، وقال الألباني: حسن.

(٣) البخاري في «الصحيح» (٥٦٦٧).

والطاعة وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أوصني قال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئا،وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم شهر رمضان وتحج البيت وتعتمر وتسمع وتطيع**»[2].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أنّ معاذ بن جبل رضي الله عنه أراد سفراً فقال: يا رسول الله أوصني، قال: «**اعبد الله ولا تشرك به شيئا**»، قال: يا رسول الله زدني، **قال: «إذا أسأت فأحسن**»، قال: يا رسول الله زدني، قال: «**استقم ولتحسن خلقك**»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يريد سفراً **فقال**: يا رسول الله أوصني قال: «**أوصيك بتقوى الله والتكبير على كل شرفٍ**»، **فلما مضى** قال: «**اللهم أزو له الأرض وهون عليه السفر**»[4].

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني وأوجز فقال له النبي ﷺ: «**عليك بالإياس مما في أيدي الناس وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصلِّ صلاتك وأنت مودع وإياك وما تعتذر منه**»[5].

---

(١) الترمذي في «الجامع» (٢٦٧٦)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) الحاكم في «المستدرك» (١٦٥)، ووافقه الذهبي.

(٣) نفسه (١٧٩)، وقال الذهبي: صحيح الإسناد، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (٣/ ٧): حسن.

(٤) أحمد في «المسند» (٨٢٩٣)، والحاكم في «المستدرك» (١٦٣٣)، وصححه الألباني في «سلسلة الصحيحة» (٣٠٨).

(٥) الحاكم في «المستدرك» (٧٩٢٨)، وقال الذهبي: صحيح، وقال الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٢٠٣)، حسن لغيره.

وعن ضِرْغامة بن عُلَيبة بن حرملة العنبري قال حدثني أبي عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله أوصني قال: «**اتَّق الله وإذا كنت في مجلس قوم فسمعتهم يقولون ما يعجبك فأته وإذا سمعتهم يقولون ما تكره فاتركه**»[1].

وعن ميمون بن أبي شبيبٍ عن معاذ أنه قال يا رسول الله أوصني، قال: «**اتَّق الله حيثما كنت أو أينما كنت**»، قال زدني، قال: «**أتبع السيِّئة الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»، قال زدني، قال: «**خالق النَّاس بخلق حسن**»[2].

وعن إسماعيل بن أمية قال رجل أوصني يا رسول الله، قال: «**لا تشرك بالله شيئا وإن حرقت أو نصفت**»، قال زدني يا رسول الله، قال: «**برّ والديك ولا ترفع عندهما صوتك وإن أمراك أن تخرج من دنياك فاخرج لهما**»، قال زدني يا رسول الله، قال: «**لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شرٍّ**»، قال زدني يا رسول الله قال: «**أدِّب أهلك وأنفق عليهم من طولك ولا ترفع عنهم عصاك، أخفهم في ذات الله**»[3].

وعن أبي هريرة ﷺ أنّ رجلاً قال للنبي ﷺ أوصني، قال: «**لا تغضب**»، فردّد مرارا قال: «**لا تغضب**»[4].

وعن سليم بن جابر الهجيمي قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو محتب في بردة له وإنّ هدبها لعلى قدميه فقلت: يا رسول الله أوصني، قال: «**عليك باتقاء الله، ولا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وتُكلِّم أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزاء فإنها من المخيلة، ولا يحبها الله، وإن**

---

(١) أحمد في «المسند» (١٨٦٢٦)، وقال المحقق ـ حمزة أحمد الزين ـ: إسناده صحيح.

(٢) نفسه (٢١٩٥٨)، وقال المحقق: إسناده صحيح.

(٣) عبد الرّزاق في «المصنّف» (٢٠١٢٢).

(٤) البخاري في «الصحيح» (٥٧٦٥).

امرؤ عيَّرَك بشيء يعلمه فيك، فلا تُعيِّره بشيء تعلمه منه، دعه يكون وبالهُ عليه وأجره لك ولا تسُبنَّ شيئاً»، قال: فما سببت بعده دابةً ولا إنساناً[1].

فهذه طائفةٌ من وصايا النبي ﷺ لأصحابه ﷺ، ولأمّته من بعدهم، وهي - كما نرى - تتعلّق بأفضل وأهمّ ما يوصى به العبد، أعني: ربَّه، بتوحيده، والابتعاد عن الإشراك به سبحانه، والوصيّة بالتقوى، والخشية، وكذا بما يجب على العبد تجاه نفسه، وتجاه غيره، من والدٍ، وزوجٍ، ووليٍّ أمرٍ، وجماعة المسلمين، وكذا بما تدعوا إليه حاجة الطالب للوصيّة.

وكثرة هذه الوصايا تدلّ على أهميّة هذا الأسلوب في دعوة الخلق إلى خالقهم ومعبودهم.

كما يدلّ سؤال الصحابة وطلبهم للوصيّة على حرصهم الشديد على ما ينفعهم في الآخرة فضلاً عن الدنيا، الأمر الذي نستدل به على كبير فقههم، وعلوِّ مكانتهم، وخطورة شأنهم، ولهذا كان من وصاياه ﷺ لأمّته، الوصيّة بأصحابه ﷺ[2].

(١) «صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان» لابن بلبان الفارسي (٥٢١)، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٢) ومنه تعلم أنّ مَن ادّعى محبة النبي ﷺ، ثم بعد ذلك يقع في أصحابه ﷺ، فهو كاذب في ادّعائه، خائن لوصيّته ﷺ!

الفصل الثالث

وصيّة لقمان لابنه

وفيه:

المبحث الأوّل: الوصيّة بالتوحيد والتحذير من الشرك.

المبحث الثاني: الوصيّة بالوالدين.

المبحث الثالث: الدعوة إلى مراقبة الله تعالى.

المبحث الرابع: الوصيّة بالصلاة.

المبحث الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث السادس: الوصيّة بالابتعاد عن الاختيال والفخر.

المبحث السابع: إظهار التواضع في المشي والكلام.



نص الوصيّة

قال الله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[1].

---

(١) سورة لقمان.

المبحث الأوّل
الوصيّة بالتوحيد والتحذير من الشرك

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

هذه أوّل وصيّة ذكرها لقمان الحكيم لابنه ، قدّمها على غيرها لأهميّتها البالغة، ولأنّ حصول السعادة في الدارين متوقف على تحقيقها والعمل بها.

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخبرًا عن وصية لقمان لولده ـ وهو: لقمان بن عنقاء بن سدون[1]، واسم ابنه ثاران في قول حكاه السهيلي، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، فإنه آتاه الحكمة، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا، ثم قال محذرًا له: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

---

(١) اسمه أنعم، ويقال مشكم، اختلف فيه، أكان حراً أم عبداً؟ فإذا قلنا: كان حراً ، فقيل: هو ابن باعورا، قال وهب: ابن أخت أيوب عليه السلام، وقال مقاتل: ابن خالته، وقيل: كان من أولاد آزر، وعاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام، وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعث داود، فلما بعث داود، قطع الفتوى، فقيل له: لم؟ فقال: ألا أكتفي إذ كفيت؟ وكان قاضياً في بني إسرائيل، وقال الواقدي: كان قاضياً في بني إسرائيل، وزمانه ما بين عيسى ومحمد، عليهما السلام، والأكثرون على أنه لم يكن نبياً، وقال ابن المسيب: كان خياطاً، وقال ابن عباس:

أي: هو أعظم الظلم»[1].

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[2]، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يَلْبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ »[3]

وذُكِر أنّ ابنه كان كافرا فما زال يعظه حتى أسلم[4]، وقد يدلّ على رَجَاحَةِ هذا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾.

قال صاحب «التحرير والتنوير»[5]: «وفائدة ذكر الحال بقوله: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾، الإشارةُ إلى أن قوله هذا كان لتلبس ابنِه بالإشراك، وقد قال جمهور المفسرين: إن ابن لقمان كان مشركا، فلم يزل لقمان يعظه حتى آمن بالله وحده، فإن الوعظ زجر مقترن بتخويف»[6]، أو هو: «الأمر والنهي المقترن بالترغيب والترهيب»[7].

فالدعوة إلى التوحيد، والوصيّة بتحقيقه ولزومه هي أوّل ما يهتمّ به المصلحون الصالحون، وأعظم ما ينشغل به الدّاعون الناصحون، كيف لا! وإنّ الرسل لم ترسل، والكتب لم تنزّل إلاّ لهذا الأمر العظيم الذي هو توحيد رب العالمين.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٥٨٢).

(٢) الأنعام، من الآية ٨٢.

(٣) البخاري في «الصحيح» (٤٧٧٦)، ومسلم في «الصحيح» (١٢٤).

(٤) انظر: «الجامع» للقرطبي (١٦/ ٤٧١).

(٥) هو الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

(٦) (٢١/ ١٥٤).

(٧) «تيسير الكريم الرحمن» لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (٣/ ١٣٥٠).

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1].

فأوّل أمر في القرآن الكريم هو الأمر بالتوحيد، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

وأوّل نهي فيه هو النهي عن الشرك، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3].

وأوّل ما يدخل به المرء للإسلام هو كلمة التوحيد، قال النبي ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني دمه وماله ونفسه، إلاّ بحقّه، وحسابه على الله»**[4].

وهي آخر ما يخرج بها المؤمن الفائز من الدنيا، قال ﷺ: **«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنّة»**[5].

وأوّل ما دعا النبي ﷺ الناس إليه هو التوحيد، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[6].

وأوّل ما وصّى رُسُلَهُ بالابتداء به في دعوة الناس، هو التوحيد، فعن ابن

---

(١) سورة النحل، من الآية ٣٦.

(٢) سورة البقرة.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٢٢.

(٤) مسلم في «الصحيح» (٢١).

(٥) أحمد في «المسند» (٢٢٠٢٦)، وأبو داود في «السنن» (٣١١٦)، وقال الألباني: صحيح.

(٦) سورة آل عمران.

عباس رضي الله عنهما، أنّ النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن، قال له: **«إنّك تأتي قوما أهل كتابٍ، فليكن أوّل ماتدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلاّ الله** ـ وفي رواية: **إلى أن يوحدوا الله ـ»**[1].

وآخر ما وصّى به النبي ﷺ أمّته، إنما هو توحيد الله والابتعاد عن الشرك، فعن جندب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: **«إنّي أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإنّ الله تعالى قد اتّخذني خليلا، كما اتّخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متّخذا من أمّتي خليلا، لاتّخذت أبا بكر خليلا، ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنّي أنهاكم عن ذلك»**[2].

قال الشيخ عبد الرحمان بن ناصر السعدي: «ووجه كون الشرك عظيماً، أنه لا أفظع وأبشع ممن سَوَّى المخلوقَ من تراب، بمالك الرِّقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئا، بمن له الأمر كله، وسوَّى الناقص الفقير من جميع الوجوه، بالربِّ الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوَّى من لم يُنعم بمثقال ذرة من النِّعم، بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم، ودنياهم وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم، إلا منه، ولا يَصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟؟!

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه اللهّ لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أخس المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئا، فظلم نفسه ظلما كبيراً»[3].

---

(١) البخاري في «الصحيح» (١٤٥٨)، ومسلم في «الصحيح» (١٩).

(٢) مسلم في «الصحيح» (٥٣٢).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٣/ ١٣٥٠).

وقد قال تعالى على لسان إبراهيم إمام الموحدين عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴾[1].

كان إبراهيم التَيْمَي يقول: «مَن يأمن البلاء بعد قول إبراهيم واجنبني وبني أن نعبد الأصنام؟!»[2].

وقال النبي ﷺ: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»[3].

«فإذا كان إبراهيم عليه السلام يخاف الشرك على نفسه وبنيه، وإذا كان النبي ﷺ يخاف الشرك الأصغر على أصحابه، مع كمال علمهم وقوّة إيمانهم، فكيف لا يخافه من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب؟! فلا يأمن الوقوع في الشرك إلاّ من هو جاهل به، وبما يخلِّصه منه؛ من العلم بالله، وبما بعث به رسوله، من توحيده والنهي عن الشرك به»[4].

وحينئذٍ عُلم أنّ الوصيّة بالتوحيد والابتعاد عن الشرك، هي أعظم الوصايا على الإطلاق، لا يُقَدَّم غيرها عليها، عند كل حكيمٍ ناصحٍ مشفقٍ.

---

(١) سورة إبراهيم.

(٢) «جامع البيان» لابن جرير الطبري (١٣/ ٦٨٧).

(٣) «أحمد في«المسند» (٢٣٥٢٦)، وذكره الألباني في «سلسلة الصحيحة» (٢/ ٦٣٤).

(٤) «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» (١٠١ ـ ١٠٢).

المبحث الثاني
الوصيّة بالوالدين

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

الوصيّة الثانية من هذه الوصايا الثمينة هي الوصيّة بالوالدين، وقد تلت هذه الوصيّةُ بحقّ الأبوين على الأولاد، الوصيَّةَ بحقِّ الله على العباد، وهي كذلك في القدر والأهميّة[1].

قال الشيخ سليمان بن محمد بن عبد الوهّاب: «وعَطْفُ حقِّهما على حقِّ الله تعالى دليلٌ على تأكّد حقِّهما، وأنّه أوجب الحقوق بعد حقِّ الله»[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «ثم قَرَنَ بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين. كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[3]، وكثيرا ما يقرن

---

(١) قد اختلف في كون هذه الوصية من كلام لقمان، أم هي جملة اعتراضية من كلام الله ﷻ، انظر «زاد المسير» (٦/ ٣٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٢١/ ١٥٦)، والذي لا يُختلف فيه أنها من الوصايا القرآنية.

(٢) «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (١/ ١٦٨).

(٣) سورة الإسراء، من الآية ٢٣.

تعالى بين ذلك في القرآن».[1]

قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[2].

وقال أيضا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[3].

قال ابن ناصر السعدي رحمه الله: «لما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾، وقلنا له: ﴿ٱشْكُرْ لِى﴾، بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي: ﴿وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، وإكرامهما وإجلالهما، والقيام بمئونتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل»[4].

وبرّ الوالدين يكون ببذل المعروف لهما وكف الأذى عنهما وطاعتهما في المعروف[5]، ولم يَخُصَّ الله تعالى نوعاً من أنواع الإحسان، ليعُمَّ أنواعَ الإحسان[6].

وقد جاء تفسير الإحسان المأمور به في قوله جلّ شأنه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٥٨٢).

(٢) سورة النساء، من الآية ٣٦.

(٣) سورة الأنعام، من الآية ١٥١.

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥١).

(٥) «أيسر التفاسير» (٤/ ٢٠٥).

(٦) «تيسير العزيز الحميد» (١/ ١٦٩).

﴿الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[1].

أي: لا تسمعهما قولاً سيّئا، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيّء، ولا يصدر منك إليهما فعلٌ قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح: «لا تنفض يديك على والديك»[2]، ولمّا نهاه عن الفعل القبيح والقول القبيح، أمره بالفعل الحسن والقول الحسن، فقال قل لهما قولا ليناً طيباً، بأدبٍ وتوقيرٍ.

فبرّ الوالدين من أعظم شعب الإيمان، وأكثرها ثواباً عند الله عزّ وجلّ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**رضى الربِّ في رضى الوالدين**»[3].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلت: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: «**برّ الوالدين**»[4].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنّة، فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه**»[5].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: أقبل رجل إلى نبيِّ الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى، قال: «**فهل لك مِن والديْك أحَدٌ حَيٌّ؟**» قال: نعم، بل كلاهما. قال: «**فتبتغي الأجر مِن الله**

---

(١) سورة الإسراء، من الآية ٢٣.

(٢) «جامع البيان» لابن جرير الطبري (١٤/ ٥٤٨).

(٣) الترمذي في «الجامع» (١٨٩٩)، وقال الألباني: صحيح.

(٤) البخاري في «الصحيح» (٥٠٤)، ومسلم في «الصحيح» (٨٥).

(٥) الترمذي في «الجامع» (١٩٠٠)، وقال الألباني: صحيح.

تعالى؟»، قال: نعم. قال: «**فارْجع إلى والدَيْك، فأحسِن صُحْبتهما**»[1].

وكما أنّ في البرِّ بالوالدين أعظم الأجور، فكذلك عقوقهما يترتّب عليه أشنع العقوبات، إذ أنّ العقوق من الكبائر المهلكات، فعن أبي بكرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**»[2].

ثم «لمّا ذكر الله سبحانه فرضيّة برّ الوالدين وأهميّته، أعقبه بالسبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاقَّ، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد، مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟»[3].

قال ابن كثير رحمه الله: «إنما يذكر تعالى تربيةَ الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلا ونهارًا، ليُذكِّر الولدَ بإحسانها المتقدم إليه، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[4].

ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: فإني سأجزيك على

---

(١) البخاري في «الصحيح» (٣٠٠٤)، ومسلم في «الصحيح» (٢٥٤٩).

(٢) البخاري في «الصحيح» (٢٦٥٤)، ومسلم في «الصحيح» (٨٧).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥١)، بتصرّف.

(٤) سورة الإسراء، من الآية ٢٤.

ذلك أوفر الجزاء»[1].

قال أبو حيّان: «لما خص الأم بالمشقات من الحمل والنفاس والرضاع والتربية، نبه على السبب الموجب للإيصاء، ولذلك جاء في الحديث الأمر ببرّ الأم ثلاث مرات، ثم ذكر الأب، فجعل له مرة الربع من المبرة»[2].

يشيرُ الآلوسي إلى حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه قال: قلتُ: يا رسول الله من أبرُّ؟ قال: «**أمَّك**»، قال: قلتُ: ثمَّ من؟ قال: «**أمَّك**»، قال: قلتُ: ثمَّ من؟ قال: «**أمَّك**»، قال: قلتُ: ثمَّ من؟ قال: «**أباك، ثمَّ الأقربَ فالأقربَ**»[3].

وبرّ الوالدين واجب على الولد على كلّ حال، سواءٌ كانا مُسلِمَيْنِ أو كافرَيْنِ، وسواءٌ كانا محسنَيْنِ إليه أو مسيئَيْنِ، عادلَيْنِ معه أو ظالمَيْنِ، ما لم يأمُرانه بمعصيةٍ، لقول النبي ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[4]، إذ أنّ حقّ الله مقدّم على حقّ الوالدين.

لهذا قال تعالى في هذه الوصيّة: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره عن سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ لَمَّا هَاجَرَ، قَالَتْ أُمُّهُ: والله لا يُظِلُّني ظِلٌّ حتَّى يرجعَ، فأنزل اللهُ في ذلك أن يُحسنَ إليها، ولا يُطِعْهُمَا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٢).

(٢) «البحر المحيط» (٧/ ١٨٢).

(٣) الترمذي في «الجامع» (١٨٩٧)، وقال الألباني: حسن.

(٤) أحمد في «المسند» (١٠٩٥).

في الشِّرك[1].

وعن مُصعب بن سعدٍ عن أبيه سعدِ بنِ أبي وقاص ﷺ قال: حلَفَتْ أمُّ سعدٍ أن لا تكلِّمهُ أبداً حتّى يكفرَ بدينهِ، ولا تأكلَ ولا تشربَ، قالت: زَعَمْتَ أنّ الله وصّاكَ بوالديْك، وأنا أمّكَ، وأنا آمركَ بهذا.

قال: ومكَثَتْ ثلاثاً حتى غُشِيَ عليها من الجَهْدِ، فقام لها ابنٌ لها يُقال له عُمارةُ، فسقاها، فجعلَتْ تدعو على سعدٍ، فأنزل الله هذه الآية[2].

وعن سعد بن أبي وقاص أنه قال: نزلت هذه الآية: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾، كنت رجلاً برًّا بأمِّي فلما أسلَمْتُ قالت: يا سعد وما هذا الذي أراك قد أَحدثْتَ؟ لَتَدَعَنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي، فيُقَالَ: يا قاتل أمِّه، قلت: يا أُمَّهْ، لا تفعلي فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمَكَثَتْ يوماً وليلةً لا تأكل، فأصبحَتْ قد جهدت فمَكَثَتْ يوما آخر وليلة وقد اشتد جَهْدُها، فلمّا رأيت ذلك قلت: يا أمّهْ تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرَجَتْ نفساً نفساً ما تَركْتُ ديني هذا لشيء فإن شئتِ فكلي وإن شئتِ فلا تأكلي فلما رَأَتْ ذلك أَكَلَتْ، فنزَلَتْ هذه الآيةُ»[3].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾، أي: إن حَرَصَا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، فلا تقبل منهما ذلك، ولا يمنعنَّك ذلك من أن تصاحبهما في

---

(١) (١١/ ٣٩٥).

(٢) مسلم في «الصحيح» (١٧٤٨).

(٣) «جامع البيان» لابن جرير الطبري (١٨/ ٥٥٢).

الدنيا معروفا، أي: محسنًا إليهما»[1].

قال ابن جرير: «يقول تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾ أيها الإنسان، والداك على أن تشرك بي في عبادتك إياي معي غيري، مما لا تعلم أنه لي شريك، ـ ولا شريك له تعالى ذكره علوّا كبيرا ـ فلا تطعهما فيما أراداك عليه من الشرك بي: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾، يقول: وصاحبهما في الدنيا بالطاعة لهما فيما لا تبعة عليك فيه، فيما بينك وبين ربك ولا إثم»[2].

وقال ابن ناصر السعدي:« ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ ﴾، أي: اجتهد والداك: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾، ولا تظنّ أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق اللهّ، مقدم على حق كل أحد، و «**لا طاعة لمخلوق، في معصية الخالق**»[3].

ولم يقل: وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعُقَّهُما، بل قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾، أي: بالشرك، وأما بِرُّهُما، فاستَمِرَّ عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾، أي: صُحْبَةَ إحسانٍ إليهما بالمعروف، وأما اتِّباعُهُما وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما»[4].

عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدِمتْ عليَّ أمِّي وهي مشركةٌ، في عهد قريشٍ إذ عاهدهم، فاستفتيتُ رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله! قدِمَتْ عليَّ أمِّي وهي

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٣).

(٢) «جامع البيان» (١٨/ ٥٥٣).

(٣) تقدّم تخريجه (ص٢٧).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥١).

راغبةٌ، أفأَصِلُ أمِّي؟ قال: «**نعم، صِلِي أمَّكِ**»[1].

والوالدان هم أحُقّ الناس بدعوة ابنَيْهما للخيرِ، ونَصِيحتِهما في حال التقصير، وهو من تمام البرّ لهما، وهم أحوج ما يكونون إلى أولادهم في هذه الحالة، ومن أمثلة تطبيق هذا العمل العظيم، ما قام به الصحابيُّ الجليل أبو هريرة ﷺ مع أمِّه، و أبو هريرة يُضرَبُ به المَثَلُ في البرِّ بالأمَّهات.

فعنهُ ﷺ قال كنت أدعو أمِّي إلى الإسلام وهي مشركةٌ فدعَوْتها يوما فأَسْمَعَتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيتُ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلتُ: يا رسول الله، إنِّي كنت أدعُو أُمِّي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتها اليوم **فأَسمَعَتِني فيك ما** أكره، فادعُ الله أن يهديَ أمَّ أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهمَّ اهدِ أمَّ أبي هريرة**»، فخرجتُ مستبشرا بدعوة نبيِّ الله ﷺ، فلمَّا جئتُ فصرت إلى الباب فإذا **هو مُجافٌ**، فسمعَتْ أمِّي خَشْف قدميَّ فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعْتُ خَضْخَضَةَ الماء قال ـ فاغْتَسَلَتْ ولَبِسَتْ درعها وعَجِلَتْ عن خمارها ففتحَت الباب ثمَّ قالت: يا أبا هريرة، أَشهدُ أن لا إله إلاَّ الله وأشهدُ أنَّ محمدا عبده ورسوله ـ قال ـ فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح ـ قال ـ قلت: يا رسول الله أبشر، قد استجاب الله دعوتك، وهدى أُمَّ أبى هريرة. فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا ـ قال ـ قُلتُ: يا رسول الله، ادْعُ الله أن يحَبِّبَنِي أنا وأمِّي إلى عباده المؤمنين، ويُحَبِّبَهُمْ إلينا ـ قال ـ فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ حَبِّب عُبَيْدَكَ هذا ـ يعني أبا هريرة ـ وأمَّه إلى عبادك المؤمنين وحَبِّبْ إليهم المؤمنين**»، فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلاَّ أَحَبَّني[2].

---

(١) البخاري في «الصحيح» (٢٦٢٠)، ومسلم في «الصحيح» (١٠٠٣).

(٢) مسلم في «الصحيح» (٢٤٩١).

المبحث الثالث
الدعوة إلى مراقبة الله تعالى

قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

هذه هي الوصيّة الثالثة من هذا الوالد الصالح الشفيق على ابنه، وهي تتعلّق بالإيمان بأسماء الله وصفاته، وما يلزم منه من العمل بمقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وشرف هذه الوصيّة تابع لشرف ما جاء فيها، والعلم بأسماء الله وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وذلك لشرف المعلوم وهو الله تعالى، ثم إن العبادة تتوقف على العلم بالمعبود ومعرفته، وإنما تعرّف الله إلى عباده بأسمائه وصفاته، فوجب تعلمها، والتفقه فيها.

ومعرفة المؤمن بأسماء الله وصفاته توجب الحياء منه، والمحبّة له، وتعلّق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه[1].

وقد جاء في هذه الوصيّة التنصيص على اسمين من أسمائه تعالى، هما: اللطيف، والخبير.

---

(١) انظر: «الفوائد» لابن القيم (ص١٩٠).

«أما الخبير فمعناه: الذي أدركَ علمهُ السرائر، واطّلع على مكنون الضمائر، وعلم خفيّات البذور، ولطائف الأمور، ودقائق الذّرّات، فهو اسم يرجع في مدلوله إلى العلم بالأمور الخفيّة التي هي في غاية اللطف والصِغَر، وفي غاية الخفاء، ومن باب أولى وأحرى علمه بالظواهر و الجلِيَّات.

وأمّا اللطيف فله معنيَان:

أحدهما: بمعنى الخبير، وهو أنّ عِلمَه دقَّ ولطُفَ حتّى أدرك السّرائر والضمائر والخفيّات.

الثاني: الذي يُوْصِلُ إلى عباده وأوليائه مصالحَهم بلطفه وإحسانه من طرقٍ لا يشعرون بها»[1].

قال السعدي: «﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ ﴾، التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ ﴾، أي في وسطها: ﴿أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، في أي جهة من جهاتها: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾، لسعة علمه، وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾، أي: لطيف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة اللهّ، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قَلَّ أو كَثُرَ»[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، أي: أحضرها الله يوم

(١) «فقه الأسماء الحسنى» لعبد الرزاق البدر (١٣٨- ١٣٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥٢).

القيامة حين يضع الموازين القسط، وجازى عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾[2]»[3].

قال أبو بكر الجزائري: «أي إن تك زنة حبة من خردل من خير أو شر من حسنة أو سيئة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾، ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾، ويحاسب عليها ويجزي بها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾، أي باستخراجها: ﴿خَبِيرٌ﴾، بموضعها، وعليه فاعمل الصالحات، واجتنب السيئات، وثِقْ في جزاء الله العادل الرحيم»[4].

وتحقيق الإيمان بهذين الاسمين، يورث العبدَ درجةَ الإحسانِ في العبادة، إذ أنّ للإحسان في العبادة مقامَيْن:

«أحدهما: مقام الإخلاص، وهو أن يعملَ العبد على استحضار مشاهدةِ الله إيّاه، واطّلاعه عليه، وقربه منه، فإذا استحضرَ العبدُ هذا في عمَلِهِ، وعمِلَ عليه، فهو مخلصٌ لله، لأنّ استحضاره ذلك في عمَلِهِ يمنعهُ من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل.

---

(١) سورة الأنبياء.

(٢) سورة الزلزلة.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٣).

(٤) «أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير» لأبي بكر جابر الجزائري (٤/ ٢٠٧).

والثاني: مقام المُشاهدة، وهو أن يعمَلَ العبدُ على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه، وهو أن يتنوّر القلب بالإيمان، وتنفُذ البصيرة في العِرْفان، حتّى يصير الغيبُ كالعيان»[1].

وأصل هذا، قول النبي ﷺ في تعريف الإحسان: «**أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[2].

والمعنى: «أنّ العبدَ إذا أُمِرَ بمراقبة الله في العبادة، واستحضار قربه من عبده، حتّى كأنّ العبد يراه، فإنّه قد يشُقُّ ذلك عليه، فيستعين على ذلك بإيمانهِ بأنّ الله يراهُ ويطَّلِعُ على سرِّه وعلانيته، وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيءٌ من أمره، فإذا حقّق هذا المقام، سهُل عليه الانتقال إلى المقام الثاني، وهو دوامُ التّحديق بالبصيرة إلى قُربِ الله من عبده ومعِيّته، حتّى كأنّه يراهُ.

وقيل: بل هو إشارة إلى أنّ من شقَّ عليه أن يعبُدَ الله كأنّه يراه، فلْيَعْبُدِ الله على أنّ الله يراه ويطّلِعُ عليه، فلْيستَحِي مِن نظره إليه، كما قال بعض العارفين: اتّق الله أن يكون أهونَ النّاظرين إليك.

وقال بعضهم: خَفِ الله على قدرِ قدرته عليك، واستحي منه على قدر قُربه منك.

وقالت بعض العارفات من السّلف: مَنْ عمِل لله على المُشاهدةِ فهو عارفٌ، ومَنْ عمِل على مشاهدة الله إيّاه فهو مخلصٌ»[3].

فجزاء العمل بهذه الوصيّة الجليلة، بلوغ مرتبة الإحسان في الدنيا، وفي

---

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص٨٠ - ٨١).

(٢) مسلم في «الصحيح» (٨).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٨٠).

الآخرة قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1]، قال النبي ﷺ: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنّةَ، قال يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدُكُم؟ فيقولون: أَلَم تُبيِّض وجوهَنا؟ أَلَم تُدْخِلنا الجنَّةَ وتُنَجِّنا من النّار؟ قال: فَيَكْشِفُ الحِجابَ فما أُعطُوا شَيْئاً أحَبّ إليهم من النظر إلى ربِّهم ﷻ»، ثمّ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[2].

قال ابن رجبٍ رحمه الله: «وهذا مناسبٌ لجعله جزاءً لأهل الإحسان، لأنّ الإحسانَ هو أن يعبُدَ المؤمنُ ربَّهُ في الدنيا على وجه الحضور والمراقبةِ، كأنّه يراه بقلبه، وينظر إليه في حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظر إلى الله عياناً في الآخرة»[3].

---

(١) سورة يونس، من الآية ٢٦.

(٢) مسلم في «الصحيح» (١٨١).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٧٧).

المبحث الرابع
الوصيّةُ بالصَّلاة

قال تعالى حكايةً عن لقمان الحكيم: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

هذه الوصيّة يوصي فيها هذا الرجل الصالح الحريص على ما ينفع ابنه بفرضٍ من فروض الدِّين، وركنٍ من أركان الإسلام، بل هي أعظم أركانه المتعلِّقة بالجوارح، إذ أنّ النبي ﷺ قال: «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة**»[1].

«فلما نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات، فبدأ بأشرفها، وهو الصلاة، حيث يتوجه إليه بها»[2].

و«انتقل من تعليمه أصول العقيدة إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة فابتدأها بإقامة الصلاة، والصلاة التوجه إلى الله بالخضوع والتسبيح والدعاء في أوقات معينة في الشريعة التي يدين بها لقمان، والصلاة عماد الأعمال لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصالح»[3].

والصلاة هي قِوام الدين الذي يقوم به، كما يقوم الفُسطاط على عموده،

---

(١) من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وهو عند الترمذي في «الجامع» (٢٦١٦)، وابن ماجه في «السنن» (٣٩٧٣)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) «البحر المحيط» (٧/ ١٨٣).

(٣) «التحرير والتنوير» للطاهر بن عاشور (٢١/ ١٦٤).

الذي لا يثبت ولا يقوم إلاّ به، ولو سقط العمود لسقط الفسطاط ولم يثبت[1].

قال السعدي: «حثَّهُ عليها، وخصَّها لأنها أكبر العبادات البدنية»[2].

والصّلاة آخر ما يُفقد من الدِّين، وهي أوّل ما يُحاسب عليه العبد يومَ القيامة، فعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ أوّل ما يحاسَبُ به العبدُ يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء قال الرب ﷻ انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على ذلك**»[3].

وبها يحصلُ التّمييزُ بين المؤمن والكافر، فعن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلاَةِ**»[4].

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»[5].

وهي من أهمّ صفات عباد الله المتّقين، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③﴾[6].

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص٩٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥٢).

(٣) أبو داود في «السنن» (٨٦٤)، و الترمذي في «الجامع» (٤١٣)، والنسائي في «السنن»(٤٦٦)، وابن ماجه في «السنن» (١٤٢٥)، وقال الألباني: صحيح.

(٤) مسلم في «الصحيح» (٢٥٧).

(٥) الترمذي في «الجامع» (٢٦٢١). والنسائي في «السنن» (٤٦٣)، وابن ماجه في «السنن» (١٠٧٩)، وقال الألباني: صحيح.

(٦) سورة البقرة.

ولمّا ذكر الله صفاتِ المؤمنين في سورتي المؤمنون والمعارج، بدأها بالصّلاة وختمها بالصّلاة، فقال في سورة المؤمنون: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾، وقال في آخرها: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾.

وقال في سورة المعارج: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ ﴾، وقال في آخرها: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ ﴾.

وممّا يدلّ على أهمّيّتها:

أنّ الله فرض الصلوات الخمس على رسوله ﷺ ليلةَ الإسراء والمعراج، وهو في السماء، كما جاء ذلك في أحاديث الإسراء.

وأنّ أهل سَقَر يُجيبون عن أسباب دخولهم سَقَر بقولهم: ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴾[1].

وأنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[2].

والوصيّة بالصلاة هي وصيّة النبي ﷺ لأمّته، بل هي من آخر ما أوصى به أمّته.

عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**»، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه[3].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: «كانت عامّة وصيّة رسول الله ﷺ حين

---

(١) سورة المدثر، الآية ٤٣.

(٢) سورة العنكبوت، من الآية ٤٥.

(٣) ابن ماجه في «السنن» (١٦٢٥)، وقال الألباني: صحيح.

حضرته الوفاة وهو يُغَرغِر بنفسه: **الصّلاة وما ملكت أيمانكم**»[1].

وعن عليّ بن أبي طالبٍ ﷺ قال: «كان آخر كلام النبيّ ﷺ: **الصّلاة وما ملكت أيمانكم**»[2].

ومعنى إقامة الصّلاة: الإتيانُ بها على الوجه المَرْضِيِّ، بحدودها، وشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسُنَنِها، مع المحافظة عليها، وأدائِها في أوقاتها[3].

قال السعدي في قوله تعالى ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، «لم يقل: يفعلون الصّلاة، أو يأتون بالصّلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة:

- إقامتها ظاهرا، بإتمام أركانها، وواجباتها، وشروطها.
- وإقامتها باطناً بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.

فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، وهي التي يترتب عليها الثواب.

فلا ثواب للإنسان من صلاته، إلاّ ما عَقَلَ منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها»[4].

وفي معنى إقامة الصلاة: «قال ابن عباس: أي: يقيمون الصلاة بفروضها.

وقال: إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال

(١) نفسه (٢٦٩٧)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) نفسه (٢٦٩٨)، وقال الألباني: صحيح.

(٣) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٢١/ ١٦٤)، و«أيسر التفاسير» (٤/ ٢٠٨).

(٤) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٣٦).

عليها فيها.

وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها، وركوعها وسجودها.

وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا إقامتها»[1].

ومن إقامة الصّلاة، أداؤها في المسجد مع جماعة المسلمين، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنّه قال: **«والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتَين حَسَنَتَين لشهد العشاء»**[2].

وعن أبي هريرة قال أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ أعمى فقال يا رسول الله إِنَّهُ ليس لي قائدٌ يقودني إلى المسجد، فسأل رسولَ الله ﷺ أن يرخِّص له فيصلي في بيته فرخَّص له، فلمّا ولَّى دعاه فقال: **«هل تسمع النِّداء بالصَّلاة»**، فقال نعم، قال: **«فأجِبْ»**[3].

وعن عبد الله بن عمر كان يقول: «كنا إذا فقدنا الإنسان في صلاة العشاء الآخرة و الصبح أسأنا به الظن»[4].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٦١).

(٢) البخاري في «الصحيح» (٦٤٤)، ومسلم في «الصحيح» (٦٥١).

(٣) مسلم في «الصحيح» (٦٥٣).

(٤) الحاكم في «المستدرك» (١/ ٢١١).

«**والصلاة نور**»[1]، نورٌ للمؤمنين في الدنيا، في قلوبهم وبصائرهم، تُشرِقُ بها قلوبهم، وتستنير بها بصائرهم، ولهذا كانت قُرَّةٌ عين المتَّقين، كما كان إمامهم ﷺ يقول: «**جُعِلَتْ قُرَّة عيني في الصَّلاة**»[2].

وهي صِلَةُ العبدِ بِرَبِّهِ، فلهذا عظُمَت الوصيَّة بها.

---

(١) مسلم في «الصحيح» (٢٢٣).

(٢) الحاكم في «المستدرك» (٢٦٧٦).

المبحث الخامس
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه حكايةً عن لقمان الحكيم: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾.

هذه الوصيّة، تتعلّق بشعيرة من شعائر الدِّين العظيمة، وركنٍ ركين في الأمّة، لا تقوم إلاّ به، هو القُطب الأعظم في الدِّين، والمهمّة التي ابتعث الله لها النبيين أجمعين، ولو طُويَ بساطه وأُهمِل عِلمه وعَمَلُه، لتعطّلت النبُوَّة، واضمحلَّت الدِّيانة، وعمَّت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتَّسَع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك إلاّ يوم التَّناد.

والمصالح العليا للأمّة لا تتحقّق إلاّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ به قيام الشرائع، وقيام تلك المصالح والمحافظة عليها، وبه يُدفع عنها ما يؤدِّي إلى نقضها أو الإخلال بها من قريبٍ أو بعيدٍ.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النَّبيّ ﷺ قال: «**مَثَلُ القائم في حدود الله والواقع فيها، كمَثَلِ قومٍ اسْتَهَموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها**

وبعضهم أسفلها، وكان الَّذين في أسفلها إذا اسْتَقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصِيبِنَا خَرْقا ولم نُؤذِ مَن فوقَنَا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجَوا ونجَوا جميعاً»[1].

«القَائِمُ فِي حُدُودِ الله تَعَالَى»، معناه: المنكر لَهَا، القائم في دفعِها وإزالتِها، وَالمُرادُ بالحُدُودِ: مَا نَهَى الله عَنْهُ.

«اسْتَهَمُوا»: اقْتَرَعُوا.

ومما يُذكر في فضيلة هذه الشعيرة:

أنّ الله تبارك وتعالى جعل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من أخصِّ صفات صفيِّه من خلقه ﷺ حيث قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ** ﴾[2].

فإنّ مدار رسالة الرُسل التي بُعِثوا من أجلها، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهم يدعون إلى كلّ خير ويُحذِّرون من كلِّ شرّ.

ثمّ إنّ الله تعالى جعل هذا الوصف أيضاً من أخصِّ أوصاف من اصطفاهم من سائر البشر ليكونوا أتباعاً لرسله وأنبيائه ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أجمعين فقال جلّ جلاله: ﴿ **وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ**

---

(١) البخاري في «الصحيح» (٢٤٩٣).

(٢) سورة الأعراف، من الآية ١٥٧.

وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[1].

وقال تعالى أيضاً مبرزاً أشرف أوصاف عباده المؤمنين: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[2].

ووصفهم أيضاً عزّ وجلّ بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[3].

وذكر تميّز الصالحين الصادقين من أهل الكتاب عن المنحرفين منهم فقال سبحانه: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾[4].

بل جعل الله سبحانه خيريّةَ هذه الأمّة مُناطةً بهذه الشعيرة العظيمة، فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[5].

عن قتادة قال: ذُكر لنا أن عمر بن الخطاب قال في حجّة حجّها ورأى من

---

(١) سورة التوبة.

(٢) سورة التوبة.

(٣) سورة الحج.

(٤) سورة آل عمران.

(٥) سورة آل عمران، من الآية ١١٠.

الناس رِعَةً[1] سيئةً، فقرأ هذه: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ ﴾ الآية، ثم قال: «يا أيها الناس، من سرّه أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله منها».

وقد أمر رسول الهدى، ونبيّ الرحمة صلوات ربّي وسلامه عليه بهذه الشعيرة، فعن أبي سعيدٍ ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَن رأى منكم منكرا فليغيِّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعفُ الإيمان**»[2].

كما نزل الوحي بذمّ تاركه، فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[3].

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتَأمُرُنَّ بالمعروف ولتَنهَوُنَّ عن المنكر أو ليوشِكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»[4].

عن أبي بكرٍ الصدّيق ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**»[5].

وَعند أبي داود، «ما من قومٍ يُعمل فيهم بالمعاصي ثُمَّ يَقدِرون على أن يغيِّروا

---

(١) «جامع البيان» للطبري (٥/ ٦٧٢).

(٢) مسلم في «الصحيح» (١٨٦).

(٣) سورة المائدة.

(٤) الترمذي في «الجامع» (٢١٦٩)، وقال الألباني: صحيح.

(٥) نفسه (٢١٦٨)، وقال الألباني: صحيح.

ثُمَّ لا يغيِّروا إلاَّ يوشِكُ أن يَعُمَّهم الله منه بعقاب»[1].

ولقد أولى السلف الصالح هذه الوصيّة عنايةً بالغةً، حتى قال الثوري رحمه الله: «إنّي لأرى الشيء يجب عليَّ أن آمر فيه وأنهى فأبول دماً»[2].

وقال بلال بن سعد رحمه الله: «إنّ المعصية إذا خفِيَتْ لم تضُرَّ إلاّ صاحبها، وإذا أُعلِنَتْ فلم تُغَيَّر ضرَّت العامَّة»[3].

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «كان يُقال: إنّ الله تعالى لا يُعذِّب العامة بذنب الخاصّة، ولكن إذا عُمِل المنكر جهاراً استحقُّوا كلّهم العقوبة»[4].

والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر له فوائد[5] ترجع على الآمِرِ، وعلى المأمورِ، وعلى بقية المجتمعِ.

فمن الفوائد العائدة إلى الآمرِ نفسِه:

- خروج الآمر من عهدةِ التّكليف.
- أداء بعض حقّ الله عليه تجاه ما أسدى له من نعمٍ.
- تحصيل الثواب.
- تكفير السيئات.
- النجاة من الوعيد على تركه.
- التشبه بالرسل واقتفاء نهجهم.

---

(١) برقم (٤٣٣٨)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم - ترجمة سفيان الثوري - (١/ ١٢٤).

(٣) «الزهد» لابن المبارك رقم (١٣٥٠).

(٤) مالك في «الموطأ» (١٧٩٩).

(٥) انظر «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لخالد عثمان السبت.

ومن الفوائد العائدة على المأمورِ:

ـ رجاء انتفاعه واستقامته.

ومن الفوائد العائدة إلى الجميع:

ـ إقامة الملّة وحفظ الشريعة.

ـ رفع العقوبات العامّة.

ـ استنزال الرحمة من الله تعالى.

ـ ابتلاء الخلق بعضهم ببعض.

ـ تحقيق وصف خيرية هذه الأمّة.

كما أنّ ترك القيام بواجب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، يترتّب عليه مفاسد لا ترجع على التارك له فحسب، بل على جميع الأمّة.

عن النُّعمان بن بشير قال قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ القائم على حدود الله تعالى والمدَّهِنِ فيها كمَثَلِ قوم استَهَموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أسفلها وأصاب بعضهم أعلاها فكان الَّذِين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيِصُبُّون على الَّذِين في أعلاها فقال الَّذِين في أعلاها لا ندعكم تصعَدُون فتُؤذوننا فقال الَّذين في أسفلها فإنَّا ننْقُبُهَا مِن أسفلها فنستقي قال فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نَجَوا جميعًا وإن تركوهم غرِقُوا جميعًا**»[1].

---

(١) أحمد في «المسند» (١٨٣٢٤)، والترمذي في «الجامع» برقم (٢٠٧٣)، وقال الألباني: صحيح.

المبحث السادس
الوصيَّة بالابتعاد عن الاختيال والفخر

قال الله تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

هذه هي الوصيّة السادسة من هذا العبد الصالح إلى ابنه، فبعد أن وصّاه بما يجب عليه تجاه ربِّه ومعبوده سبحانه وتعالى، ثم بما يجب عليه تجاه والديه الذين يلي حقهما حقّ الله ورسوله، ذكر له هنا ما يجب أن يعامل الناس به، فابتدأ ذلك بالوصيّة بالابتعاد عن خلقين ذميمين، هما عنوان مساوئ الأخلاق: الاختيال، والافتخار، إذ هما عنوان التكبر الذي نهى عنه الله ورسوله.

قال أبو حيّان: «ولما وصى ابنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ صار هو في نفسه ممتثلاً للمعروف مزدجراً عن المنكر، آمرا به غيره وناهياً عنه غيره، نهاه عن التكبر على الناس والإعجاب والمشي مرحاً، وأخبره أنه تعالى لا يحب المختال، وهو المتكبر، ولا الفخور»[1].

قال ابن عاشور: «انتقل لقمان بابنه إلى الآداب في معاملة الناس فنهاه عن احتقار الناس وعن التفاخر عليهم وهذا يقتضي أمره بإظهار مساواته مع الناس

---

(١) «البحر المحيط» (٧/ ١٨٣).

وعدّ نفسه كواحد منهم»[1].

ومعنى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، أي: لا تُمِلْهُ وتعبس بوجهك الناس، تكبُّرًا عليهم، وتعاظمًا،[2] ولا توهِّم شق وجهك، كفعل المتكبر، وأقبل على الناس بوجهك من غير كبر ولا إعجاب[3].

«يقال: صاعَرَ وصعَرَ إذا أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب آخر، وهو مشتق من الصَّعَر بالتّحريك، لداء يصيب البعير فيلوي منه عنقه، فكأنه صيغ له صيغة تكلف، بمعنى تكلف إظهار الصعر، وهو تمثيل للاحتقار، لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف في غالب الأحوال»[4].

وقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، يقول: لا تُعرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلّمتهم أو كلّموك، احتقارًا منك لهم، واستكبارًا عليهم ولكن أَلِنْ جانبك، وابسط وجهك إليهم، كما جاء في الحديث: «**ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه مُنْبَسِط، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المِخيلَة، والمخيلة لا يحبها الله**»[5]، و«أقبل عليهم متواضعا مؤنسا مستأنسا، وإذا حدثك أصغرهم فاصغ إليه حتى يكمل حديثه، وكذلك كان النبي ﷺ يفعل»[6].

والمقصود هو النهي عن كلّ خلق ذميم يكون فيه احتقار للنّاس، الذي هو

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢١/ ١٦٦).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥٢).

(٣) «البحر المحيط» (٧/ ١٨٣).

(٤) «التحرير والتنوير» (٢١/ ١٦٦)، وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٤).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٤).

(٦) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨١).

من لوازم التكبر والافتخار، لا خصوص التصعير، والمشي المبيَّن صفته.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: «يقول: لا تتكبر فتحقِرَ عبادَ الله»[1].

قال ابن عاشور: «والمعنى: لا تحتقر الناس، فالنهي عن الإعراض عنهم احتقارا لهم لا عن خصوص مصاعرة الخدّ فيشمل الاحتقار بالقول والشتم وغير ذلك»[2].

ولهذا قال أبو حيّان: «ويدخل في الفخور: الفخر بالأنساب»[3].

قال القرطبي: «ومن هذا المعنى ما رواه مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»[4].

فالتدابر الإعراض وترك الكلام والسلام ونحوه، وإنما قيل للإعراض تدابر لأنّ من أبغضتَه أعرضتَ عنه وولَّيتَه دُبرك، وكذلك يَصنع هو بك، ومن أحببتَه أقبلتَ عليه بوجهك وواجهتَه لتسرَّه ويسرَّك، فمعنى التدابر موجود فيمن صعر خده»[5].

عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾، قال: «الرجل يكون بينه وبين أخيه حِنَةٌ[6]، فيراه فيعرض عنه»[7].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٤).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢١/ ١٦٦).

(٣) «البحر المحيط» (٧/ ١٨٣).

(٤) مسلم في «الصحيح» (٢٥٥٩).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨١).

(٦) الحِنَة: الحِقدُ، وهي لغة قليلة في الإحْنة، انظر: مادة (حنه) في «النهاية في غريب الأثر» لابن الأثير (ص ٢٣٨).

(٧) «جامع البيان» (١٨/ ٥٦١).

ثم قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، أي: بطرا، فخرا بالنعم، ناسيا المنعم، معجبا بنفسك، متكبرا على الحق ومتعاظما على الخلق،[1] جذلا متكبرًا جبارًا عنيدًا[2]. وهو «تمثيل كنائي عن النهي عن التكبر والتفاخر لا عن خصوص المشي في حال المرح فيشمل الفخر عليهم بالكلام وغيره.

والمرح: فرط النشاط من فرح وازدهاء، ويظهر ذلك في المشي تبخترا واختيالا فلذلك يسمى ذلك المشي مرحا، كما في الآية، فانتصابه على الصفة لمفعول مطلق، أي مشيا مرحا»، «وموقع قوله (في الأرض) بعد (لا تمش) مع أن المشي لا يكون إلا في الأرض، هو الإيماء إلى أن المشي في مكان يمشي فيه الناس كلهم، قويُّهم وضعيفُهم، ففي ذلك موعظة للماشي مرحا أنه مساو لسائر الناس»[3].

قال القرطبي في معنى المشي مرَحًا: «هو النشاط والمشي فرحا في غير شُغل وفي غير حاجة، وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء، فالمرح مختال في مشيته»[4].

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، أي: مختال بفعله، معجب في نفسه، فخور بقوله على غيره[5].

فالتكبر والتعالي على عباد الله، خلق سيء وخصلة ذميمة، على أي صورةٍ كان، بل جاءت النصوص الدّالة على أنّه من الكبائر.

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥٢).

(٢) «تفسير القرآن الكريم» (٣/ ٥٨٤).

(٣) «التحرير والتنوير» (٢١/ ١٦٦).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨٢).

(٥) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٤)، و«تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥٢).

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله سبحانه الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، من نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم**»[1].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر**»[2].

وعن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «**بينا رجلٌ يَتبَخْتَرُ في بُردَيه قد أعجبَتهُ نفسه إذ خسف الله به الأرض فهو يتجَلجَلُ في بطنها إلى يوم القيامة**»[3].

وعن عبد الله بن مسعود عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يدخل الجنَّةَ من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كِبر**»، قال رجلٌ إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: «**إنَّ الله جميلٌ يُحِبُّ الجمال، الكِبرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاس**»[4].

---

(١) ابن ماجه في «السنن» (٤١٧٤)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) الترمذي في «الجامع» (١٩٩٨)، وقال الألباني: صحيح.

(٣) أحمد في «المسند»(١٠٨١٣)، وقال محققه: إسناده صحيح.

(٤) مسلم في «الصحيح» (٢٥٧).

المبحث السابع

إظهار التواضع في المشي والكلام

قال سبحانه ـ حكايةً عن لقمان ـ: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

هذه هي آخر الوصايا التي وجهها هذا الوالد الحكيم، الشفيق بابنه، يحضّه على التمسك بها، ويحثّه على سلوك سبيلها.

فبعد أن نهاه عن الأخلاق السيّئة، والمسالك الدّنيئة مع عباد الله، الناتجة عن احتقارهم والتكبّر عليهم، وصّاه بالتّحلي بالأخلاق السويّة، والآداب الجميلة في نفسه، إذ أنّ ذلك عنوان المرء الذي يظهر لغيره، قبل أن يقول أو يفعل[1].

قال الطاهر بن عاشور: «بعد أن بين له آداب حسن المعاملة مع الناس قفّاها بحسن الآداب في حالته الخاصة، وتلك حالتا المشي والتكلُّم، وهما أظهر ما يلوح على المرء من آدابه»[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾، أي: «امش متواضعا مستكينا، لا مَشْيَ البطر والتكبر، ولا مشي التماوت»[3]، «مشيًا مقتصدا ليس بالبطيء المتثبّط،

---

(١) انظر: «البحر المحيط» (٧/ ١٨٣).

(٢) «التحرير والتنوير» (٢١/ ١٦٨).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥٢).

ولا بالسريع المفرط، بل عدلا وسطًا بين بين»[1]، «في غير عجلة ولا إسراع»[2]، «بحيث لا يبطيء، كما يفعل المتنامسون والمتعاجبون، يتباطؤون في نقل خطواتهم المتنامسون للرياء والمتعاجب للترفع، ولا يسرع، كما يفعل الخرق المتهور»[3]«فلا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثب الشطار»[4].

«والقصد: الوسط العدل بين طرفين فالقصد في المشي هو أن يكون بين طرف التبختر وطرف الدبيب ويقال: قصد في مشيه، فمعنى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ ارتكب القصد[5].

ذكر أبو حيّان عن ابن مسعود أنّه قال: «كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى، ولكن مشياً بين ذلك»[6].

و«أمّا ما روي عنه ﷺ أنه كان إذا مشى أسرع[7]، وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع، فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت، والله أعلم»[8].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٥).

(٢) «أيسر التفاسير» (٤/ ٢٠٩).

(٣) «البحر المحيط» (٧/ ١٨٣).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨٣).

(٥) «التحرير والتنوير» (٢١/ ١٦٨).

(٦) «البحر المحيط» (٧/ ١٨٤).

(٧) يشير إلى حديث أبي هريرة ﷺ قال: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ كأنّ الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدا أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ كأنّما الأرض تطوى له، إنّا لنُجهد أنفسنا وإنّه لَغير مكترثٍ. أخرجه الترمذي في «الشمائل» (رقم ١٢٣)، وقال الألباني في «مختصره» (رقم ١٠٠): ضعيف.

(٨) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨٣).

ثم قال: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾، فأمره بالغضّ من صوته، تأدّبا مع النّاس ومع الله[1]، بعد أن أمره بالاقتصاد في طريقة مشيه.

«والغض: نقص قوة استعمال الشيء، يُقال: غضَّ بصره إذا خفَضَ نظره، فلم يحدِّق كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾[2]، فغضُّ الصوت: جَعْلُه دون الجهرِ»[3].

فأمره أن يقتصد في صوته أيضاً فلا يرفع صوته إلا بقدر الحاجة، كالمقتصد لا يخرج درهمه إلا عند الحاجة وبقدرها[4]، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذي[5]، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه[6].

«ورفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة، وربما يخرج الغشاء الذي هو داخل الأذن»[7]، «وغض الصوت أوفر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع وفهمه»[8].

ثم قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾، أي: أفظعها وأبشعها، وأقبحها وأوحشها[9].

---

(١) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥٢).

(٢) سورة النور، من الآية ٣٠.

(٣) انظر: «التحرير والتنوير» (٢١/ ١٦٨).

(٤) «أيسر التفاسير» (٤/ ٢٠٩).

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨٣).

(٦) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٥).

(٧) «البحر المحيط» (٧/ ١٨٤).

(٨) نفسه .

(٩) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨٣)، و«تيسيرالكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥٢).

وهذا «تعليل علل به الأمر بالغض من صوته باعتبارها متضمنة تشبيها بليغا أي لأن صوت الحمير أنكر الأصوات، ورفع الصوت في الكلام يشبه نهيق الحمير فله حظّ من النكارة»[1].

«والحمار مَثَلٌ في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه، ومن استفحاشهم لذكره مجردا أنهم يكنون عنه ويرغبون عن التصريح فيقولون: الطويل الأذنين، كما يكنى عن الأشياء المستقذرة.

وقد عُدَّ في مساوئ الآداب أن يجري ذكر الحمار في مجلس قوم من أولي المروءة، ومن العرب من لا يركب الحمار استنكافا وإن بلغت منه الرجلة، وكان ﷺ يركبه تواضعا وتذللا لله تبارك وتعالى»[2].

«وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير وغير ذلك، فمن كان منهم أشد صوتا كان أعزّ، ومن كان أخفض كان أذلّ، حتى قال شاعرهم:

جهير الكلام جهير العطاس   جهير الرواء جهير النعم
ويعدو على الاين عدوى الظليم   ويعلو الرجال بخلق عمم

فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الخلق الجاهلية بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾، أي لو أنّ شيئاً يُهاب لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المثل سواء»[3].

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢١/ ١٦٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨٤).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦/ ٤٨٤).

«ولو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسّته وبلادته»[1].

«والحمار مثل في الذمّ البليغ والشتيمة، شُبِّه الرافعون أصواتهم بالحمير، وأصواتهم بالنّهاق، ولم يُؤت بأداة التشبيه، بل أخرج مخرج الاستعارة، وهذه أقصى مبالغة في الذمّ والتّنفير عن رفع الصوت»[2].

قال ابن كثير: «وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمّه غاية الذمّ، لأنّ رسول الله ﷺ قال: «**ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه**»[3].

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطانًا»[4]»[5].

والمقصود من هذا، إنّما هو النهي عن كلّ الأفعال القبيحة، والأقوال الدنيئة، التي لا تليق بأخلاق الإسلام، ومقاصده.

فقوله: «﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾، إشارة إلى الأفعال: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، إشارة إلى الأقوال، فنبه على التوسط في الأفعال، وعلى الإقلال من فضول الكلام»[6].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/ ١٣٥٢).

(٢) «البحر المحيط» (٧/ ١٨٤).

(٣) البخاري في «الصحيح» (٢٤٧٩).

(٤) البخاري في «الصحيح» (٣١٢٧)، ومسلم في «الصحيح» (٧٠٩٦).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٨٥).

(٦) «البحر المحيط» (٧/ ١٨٤).



الفصل الرّابع

وصيّة ابن الجوزي لابنه

وفيه:

المبحث الأوّل: استحضار العقل في الغايةِ من الخلق، والحثّ على طلب الفضائل.

المبحث الثاني: الوصيّة بطلب العلم والحث على الاجتهاد في الطاعة، وإعطاء المثل من نفسه.

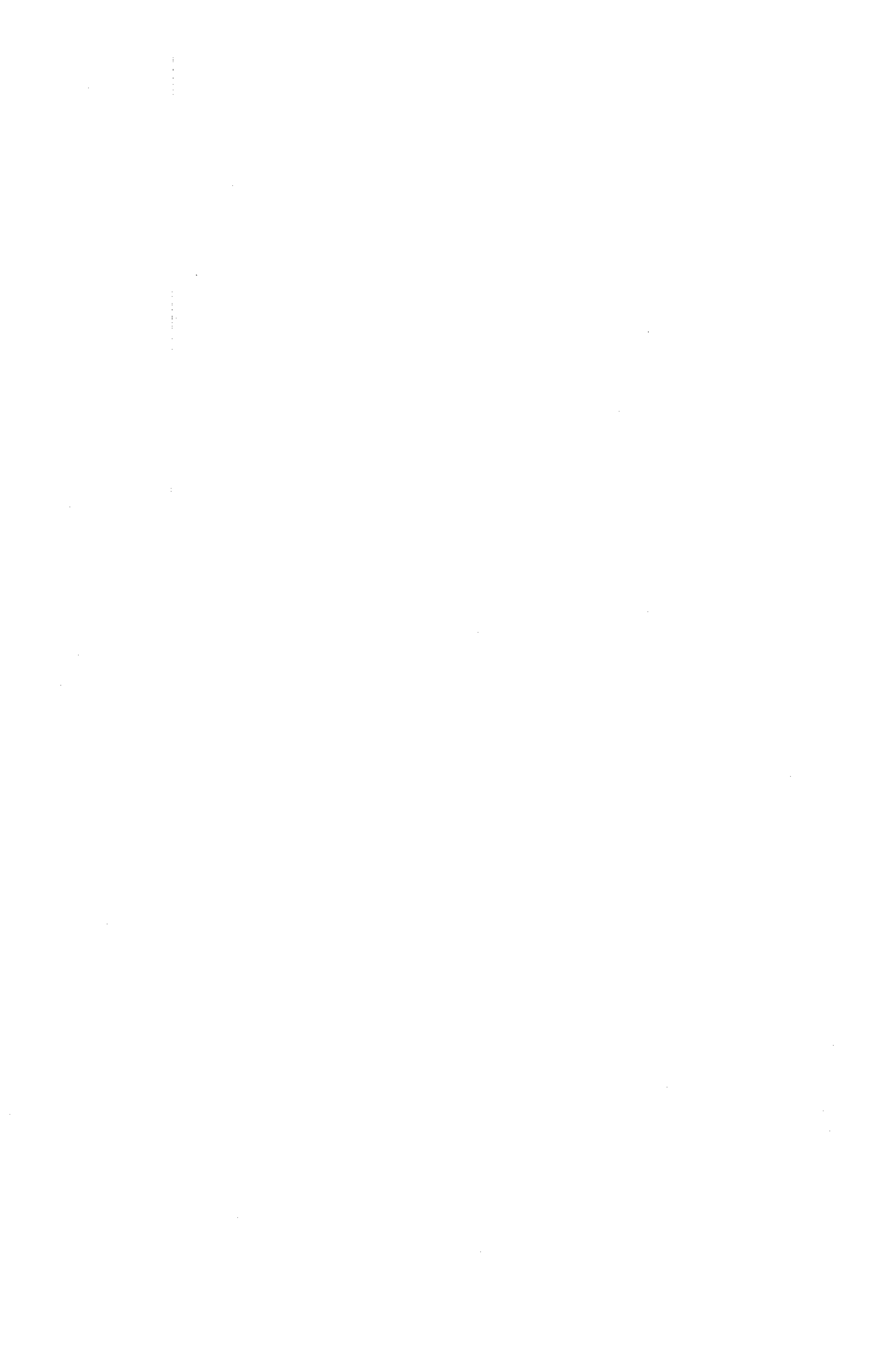
المبحث الثالث: التعجيل بالتوبة، واستدراك ما فات، واغتنام العمر.

المبحث الرابع: الوصيّة بالعزلة والزهد.

المبحث الخامس: الوصيّة بالتقوى فإنّها خير زاد.

المبحث السادس: ذكر بعض الكتب المفيدة.

المبحث السابع: الوصيّة بحفظ حقوق الناس.



نص الوصية

نصّ هذه الوصيّة رسالةٌ أرسلها عالمنا الكبير وواعظ الدنيا ـ كما أُطلِق عليه ـ الإمامُ ابنُ الجوزي[1] رحمه الله تعالى لابنه وفلذة كبده، فكان جديرا بها أن تجمع وصايا ودُررا وفوائدَ عزيزة من ناصح شفيق بليغ! واسمها «فلذة الكبد في نصيحة الولد»، وسوف أذكر من كلِّ فصل من وصيّته هذه شيئا هو كالتلخيص له، أو ما يدور عليه كلامه فيه، ويكون غالبا ما يبدأ به ابن الجوزي وصيّته، ثمّ أعلّق عليه بما ييسِّر الله تعالى.

قال في مطلعها: «الحمد لله الذي أنشأ الأب الأكبر من تراب، وأخرج ذريته من الترائب والأصلاب ، وعضّد العشائرَ بالقرابة والأنساب، وأنعم علينا بالعلم

---

(١) هو الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، مفخر العراق، جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد ، من ذريّة أبي بكر الصديق ﷺ، ولد سنة تسع أو عشر وخمس مئة،كان رأسا في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديها، ويسهب، ويعجب، ويطرب، ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ، والقيم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحرا في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفا بحسن الحديث، ومعرفة فنونه، فقيها، عليما بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار، وإكباب على الجمع والتصنيف، مع التصوّن والتجمل، وحسن الشارة، ورشاقة العبارة، ولطف الشمائل، والأوصاف الحميدة، والحرمة الوافرة عند الخاص والعام، توفي ليلة الجمعة بين العشاءين الثالث عشر من رمضان سنة سبع وتسعين وخمس مئة. ذكر ذلك الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، وانظر ترجمته الكاملة هناك (٢١/ ٣٦٥).

وعرفان الصواب، أحسنَ التربيةَ في الصغر وحفِظ في الشباب، ورزقنا ذريةً نرجو بهم وفورَ الثواب.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾[1].

أما بعد؛ فإني لما عرفتُ شرفَ النكاح وفضلَ الأولاد، ختمتُ ختمةً وسألتُ الله عز وجل أن يرزقني عشرة أولاد، فرزقني إياهم فكانوا خمسةً ذكورًا وخمسةً إناثـًا، فمات من الإناث اثنتان ومن الذكور أربعة، ولم يبق لي من الذكور سوى ولدي أبي القاسم، فسألتُ اللهَ تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح وأن يبلّغني فيه المنى.

ثم رأيتُ منه نوعَ توانٍ عن الجِدِّ في طلب العلم، فكتبتُ إليه هذه الرسالة أحثُّه بها على طلب العلم وأُحرِّكه على سلوك طريقي في كسب العلم، وأدُلُّهُ على الالتجاء إلى الموفق سبحانه، مع علمي بأنه لا خاذل لمن وفّق ولا مرشدَ لمن أضلّ، لكنْ قد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾[3]، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وبدأ بعد ذلك في سرد وصايا غاليةٍ لولدِ حبيبٍ وحيدٍ ـ هو قرّة العين ـ نابعةٍ عن علمٍ وبصيرةٍ وخبرةٍ بالحياة وممارسة لصعابها.

---

(١) سورة إبراهيم.

(٢) سورة العصر، من الآية ٣.

(٣) سورة الأعلى، الآية ٩.

ثم ختمها بقوله رحمه الله: «وقد أسلمتك إلى الله سبحانه، وإيّاه أسأل أن يوفِّقك للعلم والعمل، وهذا قدر اجتهادي في وصيتي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه».

المبحث الأوّل
إعمال الفكر في الغايةِ من الخلق، والحثّ على طلب الفضائل

قال ابن الجوزي رحمه الله: «اعلم يا بني ـ وفَّقك الله ـ أنّه لم يميِّزِ الآدميُّ بالعقلِ إلاّ ليعمل بمقتضاه، فاستحضر عقلك وأعمِلْ فِكرَك، واخلُ بنفسك، تعلمْ بالدليل أنك مخلوق مُكَلَّفٌ وأن عليك فرائض أنت مطالب بها، وأن الملكين عليهما السلام يحصيان ألفاظك ونظراتك، وأن أنفاسَ الحي خطوات إلى أجله، ومقدارَ اللُّبث في الدنيا قليل، والحبسَ في القبور طويل، والعذابَ على موافقة الهوى وبيل، فأين لذة أمس؟ قد رحلَتْ وأبقَت ندمًا، وأين شهوة النفس؟ نكّسَت رأسًا وأزلّت قدمًا، وما سعِد مَن سعِد إلا بمخالفة هواه، ولا شقِي مَن شقي إلا بإيثار دنياه، فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد، أين لذةُ هؤلاء وأين تعبُ أولئك؟ بقي الثواب الجزيل والذكرُ الجميلُ للصالحين، والمقالةُ القبيحة والعقاب الوبيل للعاصين، وكأنه ما شبع مَن شبع، ولا جاع مَن جاع.

والكسلُ عن الفضائل بئس الرفيق، وحبُ الرّاحة يورث مِن الندم ما يربو على كل لذَّة، فانتبه وأتعِبْ نفسَك، واعلم أن أداء الفرائض واجتنابَ المحارم لازم، فمتى تعدّى الإنسانُ فالنار النار»[1].

---

(١) «لفتة الكبد في نصيحة الولد» لابن الجوزي (ص٢٢ـ٢٦).

يبدأ هذا العالم الجليل وصاياه لابنه، بالوصيّة باستعمال العقل في معرفة ما يُصلحه وينفعه، في الدنيا والآخرة.

والعقل نعمةٌ عظيمةٌ من نعم الله على عباده، ميّزهم بها على سائر المخلوقات، وامتنّ بها عليهم، وألزمهم بمقتضاها ضرورةَ الاستجابة لداعيه، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾[1]، وذمَّ من عطّلها ولم ينتفع بها فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾[2].

واختلفت مناهج النّاس في التصرّف بهذه النعمة العظيمة، فمنهم من غلا فيه، حتى قدّمه على كلام الله ورسوله! فلم يقبل من نصوص الشارع إلاّ ما دلّ العقل على صحتِّه، زعم! وأسياد هؤلاء ورؤوسهم هم المعتزلة، ادّعوا أنّ دلالة النصوص ظنيّة، أمّا دلالة العقل فقطعيّة، وهذا هو الضلال بعينه.

وقسمٌ جفَوا وفرّطُوا، حتى عطّلوا العقول عمّا ركِّبت لأجله في بني الإنسان، ولعلّه منشأ فكرة نفي القياس عند الظاهرية، ادّعَوا اطِّراح العقل تماما مع النصوص، ولكّنهم ما وَفَّوا بذلك، فكان أقرب دليلٍ على انحرافهم.

ووفّق اللهُ أهلَ السنّة والجماعة إلى قولٍ وسطٍ بين الفريقين، وكان هو الحقّ الذي دلّت عليه النصوص، فالعقل هو ما تميّز به البشر على سائر خلق الله، ثمّ هو تابعٌ لا متبوع، سواءٌ تعلّق الأمر بمصالح الآخرة الغيبية، أو بمصالح الدنيا المرئيّة، وأحكامه لا تنبني على غير أصلٍ البتّة؛ ففي الدِّين لا بدّ من النصوص

---

(١) سورة الحج، من الآية ٤٦.

(٢) سورة محمد.

ليسير على ضوئها، وفي الدّنيا لا بد من تجارب سابقة ومقدمات يسير على ضوئها كذلك.

وإنّما فُضِّل مِن عباد الله مَن أحسن استعمال عقله فيما أُنزل مِن الوحي، «فبه عُرف الله سبحانه وتعالى وأسماؤه وصفات كماله ونعوت جلاله، وبه آمن المؤمنون بكتبه ورسله ولقائه وملائكته، وبه عُرفت آيات ربوبيته وأدلة وحدانيته ومعجزات رسله وبه امتُثِلت أوامره واجتنبت نواهيه، وهو الذي تلمح العواقب فراقبها وعمل بمقتضى مصالحها وقاوم الهوى فرد جيشه مفلولا وساعد الصبر حتى ظفر به بعد أن كان بسهامه مقتولا وحث على الفضائل ونهى عن الرذائل وفتق المعاني وأدرك الغوامض وشدّ أزر العزم فاستوى على سوقه، وقوّى أزر الحزم حتى حظي من الله بتوفيقه، فاستجلب ما يزين ونفى ما يشين.

فإذا نزل وسلطانه أَسَرَ جنود الهوى فحصرها في حبس **«من ترك لله شيئا عوضه الله خيرا منه»**[1] ونهض بصاحبه إلى منازل الملوك إذا صير الهوى الملك بمنزلة العبد المملوك فهي شجرة عرقها الفكر في العواقب وساقها الصبر وأغصانها العلم وورقها حسن الخلق وثمرها الحكمة ومادتها توفيق من أزمة الأمور بيديه وابتداؤها منه وانتهاؤها إليه»[2].

قال علي بن أبي طالب ﷺ: «لقد سبق إلى جنّات عدنٍ أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياما ولا حجّا ولا اعتمارا، لكنهم عقلوا عن الله مواعظه

---

(١) جاء هذا المعنى في حديث عنه ﷺ أنه قال: «**إنّك لن تدع شيئا اتّقاء الله إلاّ أعطاك الله خيراً منه**»، أخرجه أحمد في «المسند» (٣٤/ ٣٤٢/ ٢٠٧٣٩)، وقال محققه: إسناد صحيح.

(٢) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن القيّم (ص٣٨).

فوجلت منه قلوبهم واطمأنت إليه نفوسهم وخشعت له جوارحهم ففاقوا الناس بطيب المنزلة وعلو الدرجة عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة».

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «ليس العاقل الذي يعرف الخير مِن الشرِّ، ولكنّه الذي يعرف خير الشرَّيْن».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «قد أفلح من جعل الله له عقلاً».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ولد لكسرى مولود فأحضر بعض المؤدبين ووضع الصبيّ بين يديه وقال: ما خير ما أوتي هذا المولود؟ قال: عقل يولد معه، قالَ: فإن لم يكن؟ قال: فأدب حسن يعيش به في الناس، قال: فإن لم يكن؟ قال: فصاعقة تحرقه».

وقال وهب بن منبه: «قرأتُ في بعض ما أنزل الله تعالى: إنّ الشيطان لم يكابد شيئا أشدّ عليه من مؤمن عاقل، وإنه لَيَسُوقُ مائة جاهل فيستجِرُّهم حتى يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيصعب عليه حتى ينال منه شيئا من حاجته، قال وإزالة الجبل صخرة صخرة أهون على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل فإذا لم يقدر عليه تحول إلى الجاهل فيستأسره ويتمكن من قياده حتى يسلمه إلى الفضائح التي يتعجل بها في الدنيا؛ الجلد والرجم والقطع والصلب والفضيحة، وفي الآخرة العار والنار والشنار، وإنّ الرجلين ليستويان في البرّ ويكون بينهما في الفضل كما بين المشرق والمغرب بالعقل وما عُبِدَ اللهُ بشيء أفضل من العقل».

وقال معاذ بن جبل ﷺ: «لو أن العاقل أصبح وأمسى وله ذنوب بعدد الرمل كان وشيكا بالنجاة والتخلص منها ولو أن الجاهل أصبح وأمسى وله من

الحسنات وأعمال البر عدد الرمل لكان وشيكا أن لا يسلم له منها مثقال ذرة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: إنّ العاقل إذا زلّ تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي رُزِقَه، والجاهل بمنزلة الذي يبني ويهدم، فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله».

وقال الحسن: «لا يَتِمُّ دينُ الرَّجُلِ حتى يَتِمَّ عَقلُه، وما أودع الله امرأ عقلا إلاّ استنقذه به يوما».

وقال بعض الحكماء: «من لم يكن عقله أغلب الأشياء عليه، كان حتفه وهلاكه في أحب الأشياء إليه».

وقال يوسف بن أسباط: «العقل سراجُ ما بطنَ، وزينةُ ما ظهرَ، وسائسُ الجسدِ ومِلاكُ أمرِ العبدِ، ولا تصلح الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلاّ عليه».

وقيل لعبد الله بن المبارك: «ما أفضل ما أعطي الرّجل بعد الإسلام؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدبٌ حسنٌ، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ صالحٌ يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويلٌ، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موتٌ عاجلٌ»(١).

فإذا اجتمع للعبد عقلٌ مع دينٍ، ظفر بالنجاة والسلامة.

قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾(٢)، هو «الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره»(٣).

---

(١) قد أورد هذه الآثار كلها ابن القيّم في «روضة المحبين» (ص٤٠ ـ ٤١).

(٢) سورة الشعراء.

(٣) «إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان» لابن القيّم (١/ ٤١).

فبكمال عقله يدفع الشبهات، وبكمال دينه يدفع الشهوات.

«وقال بعض أهل العلم: «لما أهبطَ اللهُ تبارك وتعالى آدم إلى الأرض أتاه جبريل ﷺ بثلاثة أشياء: الدين والخلق والعقل، فقال: إنّ الله يخيرك بين هذه الثلاثة. فقال: يا جبريل ما رأيت أحسن من هؤلاء إلاّ في الجنة. ومدّ يده إلى العقل فضمه إلى نفسه، فقال للآخرين اصعدا، فقالا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، فصارت الثلاثة إلى آدم ﷺ».

وهذه الثلاثة أعظم كرامة أكرم الله بها عبده وأجل عطية أعطاه إياها وجعل لها ثلاثة أعداء الهوى والشيطان والنفس الأمارة والحرب بينهما دول وسجال وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم»[1].

---

(١) «روضة المحبين» (ص٣٩).

المبحث الثاني

الوصيّة بطلب العلم والحثّ على الاجتهاد في الطاعة، وإعطاء المثل من نفسه

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وأوّلُ ما ينبغي النظر فيه معرفة الله تعالى بالدليل، ومعلومٌ أنّ مَن رأى السماء مرفوعةً والأرضَ موضوعةً، وشاهدَ الأبنية المحكمة، خصوصًا جسدَ نفسِه، علِمَ أنْ لا بدّ حينئذ للصَنعة مِن صانعٍ، وللمبني من بانٍ.

ثم يتأمل دليل صدق الرسول ﷺ إليه، وأكبرَ الدلائلِ، القرءانَ الذي أعجز الخلق أن يأتوا بسورة من مثله. فإذا ثبت عنده وجودُ الخالق وصدقُ الرسول ﷺ، وجب تسليمُ عِنانِه إلى الشرع، فمتى لم يفعلْ دلَّ على خللٍ في اعتقاده.

ثم ينبغي له أن يعرف ما يجب عليه من الوضوء والصلاة، والزكاةِ إن كان له مال، والحج، وغير ذلك من الواجبات، فإذا عَرف قدرَ الواجب وقام به فينبغي لذي الهمة أن يترقّى إلى الفضائل، فيتشاغلَ بحفظ القرءان وتفسيره، وبحديث رسول الله ﷺ، وبمعرفة سِيَره وسِيَر أصحابه والعلماء بعدهم، ليتخيّر مرتبةَ الأعلى فالأعلى. ولا بدّ من معرفة ما يقيمُ به لسانَه من النّحو ومعرفةِ طرفٍ من اللّغة مستعمَلٍ. والفقهُ أمُّ العلوم، والوعظُ حَلواؤها وأعمّها نفعاً».

ثمّ قال له: «ومتى رأيتَ في نفسك عجزًا فسَل المنعِمَ، أو كسلاً فالجأ إلى الموفِّقِ، فلن تنال خيرًا إلاّ بطاعته، ولا يفوتُك خيرٌ إلاّ بمعصيته».

ثمّ قال: «وإني لأذكر لك بعضَ أحوالي لعلك تنظر إلى اجتهادي، وتسألَ الموفِّقَ لي»[1].

يوصي عالمنا الجليل من خلال هذا المقطع ابنَه، بأمرين في غاية الأهميّة، إذ تحقيق الغاية التي خُلق الخلق لأجلها متوقّفٌ عليهما، ألا وهما: طلب العلم، ثم العمل بما يقتضيه هذا العلم، ثمّ يزيده حثاً وتشجيعاً على ذلك، بذكر الأسوة من نفسه، وإعطاء القدوة من شخصه، وهذا أنفع ما يكون للولد، بأن يكون أوّل من يعمل بنصائح الوالد هو الوالد نفسه، فيجد نفسه منساقاً إلى العمل بهذه الفضائل، بخلاف ما لو كان الوالد يأمر بالشيء وهو أوّل المضيّعين له.

أمّا العلم، فقد دلّت النصوص على أنّ طلبه واجبٌ، كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2]. وقال النبي ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[3].

قال ابن عبد البرّ: «قد أجمع العلماء على أنّ من العلم ما هو فرضٌ متعيِّنٌ على كلِّ امرئٍ في خاصّة نفسه، ومنه ما هو على الكفاية إذا قام به قائمٌ سقط فرضُه عن أهل ذلك الموضع، واختلفوا في تلخيص ذلك»[4].

أمّا فضائله فكثيرةٌ وكثيرةٌ جدّاً،قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(١) «لفتة الكبد» (ص٢٧ ـ ٣٥).

(٢) سورة محمد، من الآية ١٩.

(٣) ابن ماجه في «السنن» (٢٢٤)، وقال الألباني: صحيح.

(٤) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٦).

﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[1].

ففي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة:

منها: أنّ الله خصّ أهله بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس.

ومنها: أنّ الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً.

ومنها: أنّه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته.

ومنها: أنّه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومنها: أنّ إشهاده تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه[2].

قال ﷻ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3].

وقال النبي ﷺ: «**من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم،وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنّ العلماء هم ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورثوا دينارا**

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(٢) انظر: «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٢١١).

(٣) سورة المجادلة، من الآية ١١.

ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

وقال أيضاً ﷺ: «**من يرِد الله به خيراً يفقِّهه في الدِّين**»[2].

وللعلمِ شعبٌ كثيرةٌ، يمكن ردّها إلى أصولٍ معلومةٍ تجمعُ شتاتها، قال ابن القيّم رحمه الله: «للإنسان قوّتان: قوّةٌ علميّةٌ نظريةٌ، وقوّةٌ عمليّةٌ إراديّةٌ، وسعادته التّامة موقوفةٌ على استكمال قوّتَيهِ العلميّةِ والإراديّةِ.

واستكمالُ القوّة العلميّة إنّما يكون:

- بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.
- ومعرفة الطريق التي توصل إليه.
- ومعرفة آفاتها.
- ومعرفة نفسه.
- ومعرفة عيوبها.

فبهذه المعارف الخمسة يحصلُ كمال قوّته العلميّة، وأعلم النّاس بها أعرفُهم بها وأفقههم فيها.

واستكمال القوّة العمليّة الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد، والقيام بها:

- إخلاصاً وصدقاً ونصحاً.
- وإحساناً ومتابعةً.
- وشهوداً لمنّته عليه، وتقصيره هو في أداء حقّه، فهو مستحي من مواجهته

(١) ابن ماجه في «السنن» (٢٢٣)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) الترمذي في «الجامع» (٢٦٤٥)، وقال الألباني: صحيح.

بتلك الخدمة، لعِلْمِهِ أنها دون ما يستحقّه، ودون دون ذلك، وأنّه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوّتين إلاّ بمعونته»[1].

وكلُّ ما ذكره ابنُ الجوزي لابنه مِن العلوم التي يحثّه على طِلابها، فإنّك تجدُهُ داخلاً تحت هذه الأصول الخمسة.

ثمّ ذكرَ ما يتعلّق بضرورة العمل بهذا العلم، فإنّ العملَ هو المقصود الأوّل من طلب العلم، والعمل بالعلم وسيلةٌ لتثبيته، كما أنّ ترك العمل بالعلم مذمومٌ، وذلك ذريعةٌ لذهابه.

قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[2].

عن علي رضي الله عنه قال: «هتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلاّ ارتحل»[3].

ويقول بشرٌ الحافي: «أدُّوا زكاة الحديث: فاستعمِلوا من كلّ مائتي حديث خمسة أحاديث»[4].

ويقول الذهبي: «وأما اليوم: فما بقي من العلوم القليلة إلاّ القليل، في أناس قليل، ما أقلّ من يعمل منهم بذلك القليل، فحسبنا الله ونعم الوكيل»[5].

هذا يقوله الذهبي في زمنه، فما عسى أن نقول نحن اليوم؟ والنبي ﷺ يقول: «لا يأتي عليكم زمانٌ إلاّ والذي بعده أشرّ منه حتّى تلقَوا ربكم»[6].

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٩).

(٢) سورة الصف.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في «اقتضاء العلم العمل» (ص٣٥ ـ ٣٦).

(٤) «أدب الإملاء والاستملاء» للسمعاني (٢/ ٤٤٥)، رقم الفقرة (٣٢٤).

(٥) تذكرة الحفاظ ـ ترجمة الحليمي أبي عبد الله الحسين البخاري ـ (٣/ ١٠٣١)

(٦) أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه (٤/ ٣٥٩/ ٧٠٦٨).

فهاهنا ثلاث بلايا! قلّة العلوم النافعة في بحر العلوم الضّارة وغير النافعة التي تذهب بالوقت والجهد من غير عائدة ولا فائدة، ثمّ قلّة الباحثين عن هذه العلوم، القاصدين لها المؤثرين لها على غيرها، فهؤلاء كالشامة البيضاء على رأس الحصان الأسود، ثمّ قلّة العاملين بهذه العلوم من بين طالبيها، فتالله لقد نودي عليها في سوق الكساد! فما قلّب ولا استام إلاّ أفراد من العباد! فاللّهم ارحمنا.

وعن أبي بن كعب ﷺ قال: «تعلّموا العلم واعملوا به، ولا تتعلّموه لتجملوا به؛ فإنّه يوشك إن طال بكم زمان أن يُتجمَّل بالعلم كما يَتجمَّل الرّجل بثوبه»[1].

ثمّ ذكر ابن الجوزي رحمه الله لابنه في آخر هذه الوصيّة، شيئاً من حاله زمن طلبه للعلم، لعلّ ذلك يكون حافزاً له على السير قُدُما في طلب هذه الفضائل، سبباً معيناً على الجزم بإمكانيّة بلوغها، فكأنه يقول له: يمكنك أن تبلغ ما بلغتُ، إذا سِرتَ على ما سِرتُ عليه.

وقد قيل قديماً:

إذا أعجبتك خصالُ امرئٍ فكُنْهُ تَكُنْ مِثْلَ ما يُعجِبُـك

فليس على الجُودِ والمَكْرُمـا تِ إذا جِئْتَهَا حاجبٌ يحجبُك

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٩٣).

المبحث الثالث

التعجيل بالتوبة، واستدراك ما فات، واغتنام العمر

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فانتبه يا بني لنفسك، واندم على ما مضى من تفريطك، واجتهد في لحاق الكاملين، ما دام في الوقت سَعةٌ، واسْقِ **غُصْنَكَ** ما دامت فيه رطوبةٌ، واذكر ساعاتك التي ضاعت، فكفى **بها عظة، ذهبَتْ** لذّةُ الكسل فيها، وفاتت مراتبُ الفضائل، وقد كان السلف رحمهم الله **يحبون جمعَ** كل فضيلة، ويبكون على فوات واحدة منها»[1].

ثمّ قال: «ومن تفكّر في الدنيا قبل أن يُوجَدَ، رأى مدّة طويلة، فإذا تفكّر فيها بعد أن يخرج رأى مدة قصيرة، وعلِم أن اللُّبْثَ في القبور طويل، فإذا تفكّر في يوم القيامة، عَلِم أنّه خمسون ألف سنة، فإذا تفكّر في اللُّبث في الجنّة أو النّار عَلِم أنّه لا نهايةَ له، فإذا عاد إلى النّظر في مقدار بقائه في الدنيا ـ فرضنا ستين سنة مثلاً ـ فإنه يَمضي منها ثلاثون في النوم، ونحوٌ من خمس عشر في الصِبا، فإذا حَسَبتَ الباقي، كان أكثرُه في الشهوات والمطاعم والمكاسب، فإذا خلص ما للآخرة وجد فيه من الرياء والغفلة كثيرًا، فبماذا تشتري الحياة الأبدية، وإنما الثّمن هذه الساعات؟!»[2].

---

(١) «لفتة الكبد» (ص٣٨).

(٢) المصدر السابق (ص٣٩).

بعدما ذكر عالمنا الكبير لابنه ما يجب عليه أداؤه، وما يحسن له التلبّس به، من التأمّل في الغاية من الخلق، ثمّ العلم والعمل، لإدراك مراتب النجاة والنّجاح، أعقب ذلك بالوصيّة بالتوبة والنّدم على ما فات، واغتنام ما هو آت.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «هلمّ إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصبٍ ولا تعبٍ ولا عناءٍ، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنّك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر، بين ما مضى وما يستقبل.

فالذي مضى تُصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عملٍ شاقٍّ، إنّما هو عمل قلب.

وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة، ليس هو عملاً بالجوارح يشقّ عليك معاناته، وإنّما هو عزم ونيّة جازمة تريح بدنك وقلبك وسرّك.

فما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنيّة، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب.

ولكن الشأنُ في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكرت نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم، وحفظه أشقّ من إصلاح ما قبله وما بعده فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك بلغتَ السعادة

العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب، انقضت عنك بسرعة وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشقّ وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله»[1].

أما التوبة فهي من أعظم القربات، وأجلّ الطاعات، أمر الله بها عباده فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾[2].

ومدح الله تعالى المتلبّسين بها، فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾[3].

وأخبر سبحانه عن محبّته للتائبين فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾[4].

بل التوبة هي عمل العبد، إذ أنّه خُلِق لأجله، فعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب اللهُ بكم ولجَاء بقوم يُذنبون

---

(١) «الفوائد» (ص١٥٥).

(٢) سورة التحريم.

(٣) سورة التوبة.

(٤) سورة البقرة، من الآية ٢٢٢.

فيستغفرون الله فيغفرُ لهم»[1].

والله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عباده، فعن عبد الله ﷺ قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «للهُ أَشَدُّ فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دويَّةٍ مهلكةٍ معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظَ وقد ذهبت فطلبها حتَّى أدركه العطش ثمَّ قال أرجع إلى مكاني الَّذي كنتُ فيه فأنامُ حتَّى أموت. فوضع رأسه على ساعده ليموتَ فاستيقظ وعنده راحلتهُ وعليها زادُه وطعامُه وشرابُه فاللهُ أشدُّ فرحًا بِتوبة العبد المؤمن مِن هذا براحلته وزاده»[2].

وللتّوبة شروط ذكرها العلماء، حتّى تصحّ وتكون مقبولةً عند الله، هي:

١ ـ الإخلاص.

٢ ـ الإقلاع عن هذه المعصية.

٣ ـ الندم على مافات من التلبّس بها.

٤ ـ العزم على عدم الرّجوع إليها.

وإن كانت المعصية تتعلّق بحقّ من حقوق الغير، فيزاد شرط آخر، هو ردّ الحقّ إلى صاحبه، أو استحلاله منه[3].

ومن لوازم التوبة الصادقة، أن يغتنم العبد الأوقات في مرضاة ربّه جلّ وعلا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل

---

(١) مسلم في «الصحيح» (٧١٤١).

(٢) المصدر السابق (٧١٣١).

(٣) انظر: «رياض الصالحين» للإمام النووي (ص١٤).

فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[1].

ومع هذا، قال النبي ﷺ: **«نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من النّاس، الصّحة والفراغ»**[2].

وقد ضرب السلف الصالح من هذه الأمّة أروعَ الأمثلةِ في اغتنام الأوقات، واستعمال الأنفاس في ما يُرضي الربّ سبحانه وتعالى.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «دخلنا على عابدٍ مريض، وهو ينظر إلى رجليه ويبكي، فقلنا: ما لك تبكي؟ فقال: ما اغبرّتا في سبيل الله تعالى؛ وبكى آخر فقيل له: ما يبكيك؟ قَالَ: على يومٍ مضى ما صمته، وعلى ليلة ذهبَت ما قمتها»[3].

و«كان كَهْمَسُ بن الحسن التميمي يختم القرءان في كل يومٍ وليلةٍ ثلاث مرات.

وكانت رابعةُ لا تنام الليل، فإذا طلع الفجر هجعَتْ هجعةً خفيفة وقامت فزِعَةً وقالت لنفسها: النوم في القبور طويل»[4].

ثمّ ذكر ابن الجوزي لابنه ما يُعينه على ذلك من التفكرّ في حال الدنيا وزوالها، وحال الآخرة ودوامها، فمن تأمّل هذا علم حقارة الدنيا وخسّتها أمام ما خلقه الله لأجله، وهي حياته الحقيقية ـ الآخرة ـ فهانت عليه.

عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضةٍ ما سقى كافراً من شربة ماء»**[5].

---

(١) الحاكم في «المستدرك» (٧٨٤٦)، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٢) البخاري في «الصحيح» (٦٠٤٩).

(٣) «لفتة الكبد» (ص٣٨ـ٣٩).

(٤) نفسه.

(٥) الترمذي في «الجامع»(٢٣٢٠)، وقال الألباني: صحيح.

وعن ابن عباس ﷺ قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو على حصير قد أثّر في جنبه فقال: يا رسول الله لو اتخذت فراشا أَوْثَرَ من هذا؟ فقال: «**يا عمر مالي وللدنيا وما للدنيا ولي، والذي نفسي بيده ما مثلي ومثل الدنيا إلاّ كراكبٍ سارَ في يومٍ صائفٍ فاستظلّ تحت شجرةٍ ساعةً من نهارٍ ثم راح وتركها**»[1].

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «فائدة؛ لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

نظرٌ في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد، وآخر ذلك الزوال والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من همّ قبل حصولها، وهمّ حال الظفر بها، وغمّ وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظرُ في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما هنا، فهي كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[2]، فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره وزهد فيما يقتضي الزهد فيه فكل أحد مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع

---

(١) ابن حبان في «الصحيح» (٦٣٥٢)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

(٢) سورة الأعلى.

الآجل واللذة الغائبة المنتظرة إلاّ إذا تبيّن له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك إمّا لعدم تبين الفضل له، وإمّا لعدم رغبته في الأفضل، وكل واحدٍ من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة»[1].

(١) «الفوائد» (ص١٢٩).

المبحث الرّابع
الوصيّة بالعزلة والزهد

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وعليك بالعزلة فهي أصل كلِّ خيرٍ، واحذر من جليس السّوء، وليكن جلساؤك الكتب، والنظرَ في سِيَرِ السلف»[1].

وقال أيضا: «وكن حسَنَ المداراة للخلق، معَ شدة الاعتزال عنهم، فإنّ العزلة راحةٌ من خُلَطاءِ السّوء، ومُبقِيَةٌ للوَقار، فإنّ الواعظ خاصةً ينبغي أن لا يُرى مُتبَذِّلاً، ولا ماشيًا في سوقٍ ولا ضاحكًا، ليَحسُنَ الظنُ به، فيُنتَفَعُ بوعظه، فإذا اضطررتَ إلى مخالطة الناس فخالطهم بالحِلمِ عنهم، فإنك إن كشفتَ عن أخلاقهم لم تقدر على مداراتهم»[2].

وقال: «واجتهد يا بني في صيانة عِرضك من التعرض لطلب الدنيا والذّل لأهلها، واقنع تَعِزّ، فقد قيل: من قنع بالخبز والبقل لم يستعبده أحد، وجاز أعرابي بالبصرة فقال: من سيد هذه البلدة؟ فقيل له: الحسن البصري، قَالَ: وبم سادهم؟ قالوا: استغنى عن دنياهم وافتقروا إلى علمه.

واعلم يا بني أن أبي كان موسرًا وخلَّف ألوفًا من المال، وكان أبوك طفلاً،

---

(١) «لفتة الكبد» (ص٤٥).

(٢) المصدر السابق (ص٥٦).

فأُنفِق عليه من ذلك المال إلى أن بلغ، ولم يرَ بعد بلوغه سوى دارَين، كان يسكن واحدةً ويأخذ أجرة الأخرى، ثم أُعطي نحو عشرين دينارًا، وقيل له: هذه التركة كلُّها، فأخذتُ الدنانير واشتريت بها كتبًا من كتب العلم، وبعت الدارين وأنفقتُ ثمنهما في طلب العلم، ولم يبق لي شيء من المال، وما ذلَّ أبوك في طلب الدنيا كذل غيره، ولا خرج يطوف البلدان كغيره من الوُعَّاظ، ولا رأى أكابرُ البلدان رِقاعَه عندهم يستعطيهم، وأمورُه تجري على السداد. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1]»[2].

هذه الوصيّة من هذا الوالد العالم المشفق على ابنه، تضمّنت أمرين مهمّين، يرتكز عليهما المنهج الصحيح في معاملة الخلق:

الأوّل منهما: هو الأمر بالعزلة.

والثاني: الأمر بالزهادة والقناعة.

أما الأمر بالعزلة، فأصل ذلك حديث عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «**أمسك عليك لسانك، ولْيَسَعْكَ بيتُك، وابْكِ على خطيئتك**»[3].

وجاء عن عمر بن الخطاب قال: «خذوا بحظكم من العزلة»[4].

وليس المقصود هو اعتزال الناس بالكليّة وهجرهم، فإنّ هذا يفوِّت مصالح العباد في الدنيا والآخرة، ففي مسند الإمام أحمد عن ابن عمر ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنّه

(١) سورة الطلاق، من الآيتين ٢ ـ ٣.

(٢) «لفتة الكبد» (ص٤٦ ـ ٤٧).

(٣) الترمذي في «الجامع» (٢٤٠٦)، وقال الألباني: صحيح.

(٤) «تقريب الزهد لابن المبارك» (ص٢٠٨).

قال: «**المؤمن الَّذي يخالطُ النَّاس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من الَّذي لا يخالطهم ولا يصبرُ على أذاهم**»[1].

ولكن المقصود من هذا هو التقليل ما أمكن من مخالطة النّاس، إلاّ فيما يُرجى فيه النفع والأجر. فكلّما كان العبد ذا همّة عاليةٍ، كان أحرصَ على وقته أن لا يضيع بدون فائدة تعود عليه، وكلّما كان العبد أشدّ حبًّا لربِّه، كان أحرصَ على وقته أن لا يكون إلاّ له سبحانه وتعالى.

يقول ابن القيم: «المحِبُّ يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والأنس بذكره كهرب الحوت إلى الماء والطفل إلى أمِّه.

وأخرجُ من بين البيوت لعلّني   أُحدِّث عنك القلبَ بالسرِّ خاليا»[2].

كما أنّ لكثرة المخالطة مضارًّا غير هذا.

يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يَسْوَدَّ ويوجبَ له تشتُّتاً وتفرُّقاً وهمًّا وغمًّا وضَعفًا وحملاً لِمَا يعجَزُ عن حملِه من مُؤنَةِ قرناءِ السُّوءِ وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم وتقسم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة! هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة وعطلت من منحة، وأحلت من رزية وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب عند الوفاة أضَرّ من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد».

---

(١) رقم (٥٠٢٢)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) «الفوائد» (ص٩٤).

ثم قال: «والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعة والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات فإذا دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشرّ ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم وليصبر على أذاهم فإنهم لا بدّ أن يؤذوه إن لم يكن له قوّة ولا ناصر ولكن أذى يعقبه عزٌّ ومحبةٌ له وتعظيمٌ وثناءٌ عليه منهم ومن المؤمنين ومن ربِّ العالمين، وموافقتهم يعقبها ذلٌّ وبغضٌ له ومقتٌ وذمٌّ منهم ومن المؤمنين ومن ربِّ العالمين، فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلا، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلسَ طاعةً لله إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك بأنّ هذا رياءٌ ومحبةٌ لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه وليستعن بالله ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه، فإن أعجزته المقادير عن ذلك فَلْيَسُلَّ قلبه من بينهم كسَلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرا غائبا، قريبا بعيدا، نائما يقظانا، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ورقى به إلى الملأ الأعلى يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى ويديم اللجأ إليه ويلقي نفسه على بابه طريحا ذليلا، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها[1]، ولا ينال هذا إلا بعدّة صالحة، ومادة قوة من الله عز و جل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله

---

(١) وهي: التمنّي، والتعلّق بغير الله، والشبع، والمنام. انظر «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٨).

تعالى، والله تعالى أعلم»[1].

وأمّا عند فساد النّاس، فقد قال النبي ﷺ: **«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»**[2].

وأمّا الأمر بالزهد والقناعة، فالأصل فيه حديث سهل بن سعد الساعدي قال أتى النبيَّ ﷺ رجل فقال يا رسول الله دُلَّني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس. فقال رسول الله ﷺ: **«ازهد في الدنيا يحبك الله. وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك»**[3].

«ومعنى الزهد في الشيء الإعراض عنه لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمَّة عنه، يقال شيء زَهيدٌ أي قليلٌ حقيرٌ»[4].

قال ابن رجب رحمه الله: «الزهد في الدنيا بثلاثة أشياء، كلُّها من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح، ولهذا كان أبو سليمان يقول: «لا تشهد لأحدٍ بالزهد، فإن الزهد في القلب».

أحدها: أن يكون العبد بما في يد الله أوثق منه بما في يد نفسه، وهذا ينشأ من صحة اليقين وقوَّته، فإن الله سبحانه وتعالى ضمن أرزاق عباده وتكفل بها.

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[5].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٠).

(٢) البخاري في «الصحيح» (١٩).

(٣) ابن ماجه في «السنن» (٤١٠٢)، وقال الألباني: صحيح.

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص٣٤٥).

(٥) سورة هود، من الآية ٦.

وقال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾[2].

وقال الحسن: «إنّ من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عزّ وجلّ».

وعن عليّ وابن مسعود قالا: «إنّ أرجى ما يكون الرِّزق إذا قالوا ليس في البيت دقيق».

وقال مسروق: «إنّ أحسن ما أكون ظنًّا حين يقول الخادم ليس في البيت قفيز من قمح ولا درهم».

وقال الإمام أحمد: «أسرّ أيامي إليَّ يوم أُصبح وليس عندي شيء».

وقيل لأبي حازم الزاهد: «ما مالك؟ قال لي مالان لا أخشى معهما الفقر: الثقة بالله، واليأس مما في أيدي الناس».

وقيل له: «أما تخاف الفقر؟ فقال: أنا أخاف الفقر ومولاي له ما في السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى؟!».

فمن حقّق اليقين وثِق بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاءً وخوفًا، ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومن كان كذلك كان زاهدا في الدنيا حقيقةً، وكان من أغنى الناس وإن لم يكن له شيء من الدنيا، كما قال عمار ﷺ: «كفى بالموت واعظاً، وكفي باليقين غِنىً وكفي بالعبادة شُغلاً».

---

(١) سورة الذاريات.

(٢) سورة العنكبوت، من الآية ١٧.

والثاني: أن يكون العبدُ ـ إذا أصيب بمصيبة في دنياه من ذهاب مالٍ أو ولدٍ أو غير ذلك ـ أرغبَ في ثوابِ ذلك مما ذهب منه من الدنيا أن يبقي له، وهذا أيضا ينشأ من كمال اليقين وقد روي عن ابن عمر عن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: **«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا»**[1].

وهو من علامات الزهد في الدنيا وقلة الرغبة فيها كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات.

والثالث: أن يستوي عند العبد حامدُه وذامُّه في الحق، وهذه من علامات الزهد في الدنيا واحتقارها وقلة الرغبة فيها، فإنّ من عظمت الدنيا عنده اختار المدح وكره الذمّ، فربما حمله ذلك على ترك كثير من الحق خشية الذمّ، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح، فمن استوى عنده حامدُه وذامُّه في الحق، دلَّ على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه، وامتلائه من محبة الحقّ وما فيه رضا مولاه، كما قال ابن مسعود ﷺ: «اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله»»[2].

هذا ما يتعلّق بالزهد في الدنيا عموماً، وأمّا الزهد فيما في أيدي النّاس، فهذا له ثمارٌ وفوائد أكثر وأخصّ من الزهد السابق، وذلك كما قاله الحسن البصري رحمه الله: «لا تزال كريما على الناس ولا يزال الناس يكرمونك ما لم تعاط ما في أيديهم فإذا فعلت ذلك استخفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك»[3].

---

(١) الترمذي في «الجامع» (٣٥٠٢)، وقال الألباني: حسن.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٥٤٤ ـ ٥٤٥).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٥٦٥).

والداعي إلى الله إذا أراد أن يُهابَ مكانُه، وبالتالي يهابُ قولُه، فيكون أدعى للاستجابة والقبول، فعليه بهذا الخُلُق، وليشُدّ عليه بالنواجذ، فما أكثر التاركين له، وما أقلّ العاملين به.

قال أيوب السختياني: «لا يَنبُل الرجل حتى تكون فيه خصلتان: العفّة عمّا في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم»[(١)].

قال ابن رجبٍ رحمه الله: «من سأل الناس ما بأيديهم كرهوه وأبغضوه لأن المال محبوب لنفوس بني آدم فمن طلب منهم ما يحبونه كرهوه لذلك.

وأما من كان يرى المِنَّة للسائل عليه، ويرى أنه لو خرج له عن مُلكِه كلِّه لم يفِ له ببذلِ سؤاله له، وذِلَّته له، أو كان يقول لأهله: «ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم، ودوابكم تحت غيركم أحسن منها تحتكم». فهذا نادر جدّاً من طباع بني آدم، وقد انطوى بساط ذلك من أزمان متطاولة.

وأما من زهِد فيما في أيدي الناس وعَفَّ عنهم، فإنهم يحبونه ويكرمونه لذلك ويسود به عليهم.

وما أحسن قول بعض السلف في وصف الدنيا وأهلها:

وما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ عليها كلابٌ هَمُهُنَّ اجتذابها
فإن تجتنبها كنْتَ سلمًا لأهلها وإن تجتذبها نازعَتْك كلابها»[(٢)].

---

(١) نفسه.

(٢) المصدر السابق (ص٥٦٦).

المبحث الخامس

الوصيّة بالتقوى فإنّها خير زاد

قال ابن الجوزي رحمه الله: «يا بني! ومتى صحتِ التّقوى رأيتَ كلّ خير، فالمتقي لا يرائي الخلق ولا يتعرض لما يؤذي دينه، ومَن حفظَ حدودَ الله حُفِظ.

قَالَ النبي ﷺ لابن عباس ﷺ: **«احفظ اللهَ يحفظْكَ، احفظ اللهَ تجدْهُ أمامَك»**[1].

واعلم يا بنيّ أنّ يونس عليه السلام لما كانت ذخيرته خيرًا نجا بها من الشدة، قَالَ تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[2].

وأنّ فرعون لما لم تكن له ذخيرةُ خيرٍ لم يجد في شدته مَخلَصًا، فقيل له: ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾[3].

فاجعل لك ذخائر خيرٍ من تقوى تجدْ تأثيرَها».

ثم قال: «واعلم يا بني أنّ أوفى الذخائر غضُّ الطّرف عن محرَّمٍ، وإمساكُ اللسان عن فضول كلمة، ومراعاةُ حدٍّ، وإيثارُ اللهِ سبحانه وتعالى على هوى

---

(١) أحمد في «المسند» (٢٦٦٩)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) سورة الصافات.

(٣) سورة يونس، من الآية ١٤٣.

النفس، قد عرفتَ حديثَ الثلاثة الذين دخلوا إلى غارٍ فانطبقت عليهم صخرة، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي أبوان وأولاد فكنت أقف بالحليب على أبويّ فأسقيهما قبل أولادي، فإن كنتُ فعلتُ ذلك لأجلك فافرِج عنا؛ فانفرج ثلث الصخرة، فقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرتُ أجيرًا فتسخَّطَ أجرَه، فاتَّجرتُ له به فجاء يومًا فقال: ألا تخاف الله؟! فقلت: انطلق إلى تلك البقر ورعاتها فخذها، فإن كنتُ فعلتُ ذلك لأجلك فافرِج عنا؛ فانفرج ثلث الصخرة، فقال الآخر: اللهم إني علِقتُ ببنت عمٍ لي، فلما دنوتُ منها قالت: اتق الله ولا تفُضَّ الخاتَمَ إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنت فعلت لأجلك فافرِج عنا؛ **فرُفعَت الصخرة** وخرجوا.[1]

ورُئي سفيان الثوري رحمه الله في المنام فقيل له: ما فعل الله تعالى بك؟ قَالَ: ما كان إلا أن وُضِعتُ في اللحد فإذا أنا بين يدي رب العالمين، فأُمِرَ بي إلى الجنّة، فدخلتُ فإذا أنا بقائلٍ يقول: سفيان؟ قلت: سفيان، قَالَ: تذكرُ يومَ آثرتَ اللهَ تعالى على هواك؟ قلت: نعم! فأخذَتني صواني النِثارِ من الجنة»[2].

هذه الوصيّة من عالمنا الجليل لابنه، تتعلّق بأعظم الأمور وأهمّها وأوجبها على العباد، ألا وهي الوصيّة بتقوى الله عزّ وجلّ، فإنها وصيّة الله للأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[3].

---

(١) البخاري في «الصحيح» (٢١٠٢)، ومسلم في «الصحيح» (٢٧٤٣).

(٢) «لفتة الكبد» (ص٤٩).

(٣) سورة النساء، من الآية ١٣١.

وقد تكررت الوصيّة بها في كتاب الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾[5].

وقال أيضا: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[6].

وقال عزّ من قائل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

(٣) سورة المائدة.

(٤) سورة التوبة، الآية ١١٩.

(٥) سورة الأحزاب.

(٦) سورة الحديد.

(٧) سورة الحشر.

وقال أيضاً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

وقال جلّ في علاه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾[3].

ووعد الله من حقق التقوى بالرّزق، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[4].

ووعده بتيسير أموره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾[5].

ووعده بتكفير السيّئات، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾[6].

والتقوى سبب لهداية الخلق إلى معرفة الحقّ من الباطل، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[7].

---

(١) سورة النساء، الآية ١.

(٢) سورة الحج، الآية ١.

(٣) سورة لقمان، من الآية ٣٣.

(٤) سورة الطلاق.

(٥) سورة الطلاق، من الآية ٤.

(٦) سورة الطلاق، من الآية ٥.

(٧) سورة الأنفال، من الآية ٢٩.

ووعد الله سبحانه من حقّق التقوى بالفلاح، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾[1].

ووعد المتقين بالنصر والتأييد، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

وهي سبب لحصول العلم، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[3].

كما جاءت الوصيّة بالتقوى في سنّة النبي ﷺ، كما مرّ في مبحث الوصايا في السنّة النبوية[4]، فعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ**»[5].

وعن أبي ذرٍّ ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**اتّق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن**»[6].

---

(١) سورة البقرة.

(٢) سورة البقرة، من الآية ١٩٤.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٢٨٢.

(٤) (ص ٢٨).

(٥) سبق تخريجه (ص ٣٠).

(٦) الترمذي في «الجامع» (١٩٨٧)، وقال الألباني: حسن.

هذا عن أهمّيّة الوصيّة بالتقوى، أمّا عن معناها:

فالتقوى من وقَى، يقِي، وقايةً، واتّقى، يتّقي، اتِّقاءً، وصاحبها مُتَّقٍ، قال المباركفوري: «المُتَّقي في اللّغة اسم فاعل من قولهم: وقاهُ فاتَّقى، والوِقاية: فرط الصيانة، وفي الشريعة: الذي يقِي نفسه تعاطِيَ ما يستَحِقُّ به العقوبة من فعلٍ وتركٍ»(١).

وقال ابن القيم: «فلفظها دالّ على أنها من الوِقاية، فإنّ المُتّقي قد جعل بينه وبين النّار وقايةً»(٢).

وقد عرّف أهل العلم التّقوى بعدّة تعريفاتٍ غير ما سبق، وكلّها متقاربة، ذكر الرّازي جملة منها وهي:

ـ التّقوى: تركُ الإصرار على المعصية، وتركُ الاغترار بالطّاعة.

ـ التقوى: أن لا تختار على الله سوى الله، وتعلمَ أنّ الأمور كلّها بيد الله.

ـ التقوى: أن لا يجد الخلقُ في لسانكَ عيبا، ولا الملائكة في أفعالك عيباً، ولا ملِكُ العرش في سرِّك عيباً.

ـ التقوى أن تُزيِّن سرَّك للحقِّ، كما زيّنت ظاهرك للخلقِ.

ـ التقوى: أن لا يراك مولاك حيث نهاك.

ـ المُتّقي من سلك سبيل المصطفى، ونبذ الدنيا وراء القفا، وكلّف نفسه الإخلاص والوفا، واجتنب الحرام والجفا(٣).

---

(١) «تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي» للمباركفوري (٧/ ١٢٥).

(٢) «الرسالة التبوكية» لابن القيم (ص ٤٨).

(٣) «التفسير الكبير» (٢/ ٢٣ ـ ٢٤).

وأحسن ما عُرِّفت به التقوى، هو ما قاله التابعيُّ طلق بن حبيبٍ رحمه الله: «التقوى عمل بطاعة الله، على نورٍ من الله، رجاء رحمة الله، والتقوى ترك المعاصي، على نورٍ من الله، خيفةَ عقاب الله ﷻ»[1].

قال ابن القيّم: «هذا من أحسن ما قيل في حدّ التّقوى، فإنّ كلّ عملٍ لا بدّ له من مبدإٍ وغاية، فلا يكون العمل قربةً حتّى يكون مصدره عن الإيمان، فيكونَ الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة ولا الهوى ولا طلب المحمدةِ والجاهِ وغيرِ ذلك، بل لا بدّ أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله تعالى وابتغاء مرضاته، وهو الاحتسابُ، ولهذا كثيراً ما يُقرَن بين هذين الأصلين في مثل قول النبي ﷺ: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً**»، و«**من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً**»، ونظائره»[2].

وقال الذهبي مفسرا هذا التعريف: «أبدَعَ وأوجزَ، فلا تقوى إلاّ بعملٍ، ولا عمل إلاّ بِتَرَوٍّ من العلم والاتّباع، ولا ينفع ذلك إلاّ بالإخلاص لله، لا ليُقال: فلانٌ تارك للمعاصي، بنورِ الفقهِ، إذ المعاصي يفتقِرُ اجتنابُها إلى معرفتها، ويكون التّرك خوفاً من الله، لا ليُمدَح بتركها، فمن داوم على هذه الوصيّة فقد فاز»[3].

«وقد جمع كلامُه هذا: العلمَ والإخلاصَ والمتابعةَ، فيكون العلم إماماً، ولا ينفع العلم إلاّ إذا اجتمع فيه الإخلاص لله تعالى والمتابعة لرسوله ﷺ»[4].

---

(١) «الزهد» لابن المبارك برقم (١٠٥٤).

(٢) «الرسالة التبوكية» (ص٤٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٠١).

(٤) مقاصد سورة البقرة (ص١٥).

وإذا علم العبد أنّ هذه الدنيا إنما هي دار سفر وترحال، ومحطّ الرحل في دار أخرى هي دار القرار، وجب عليه أن يتزوّد بما ينفعه، ويسعفه في حال شدّته وحاجته، كحال أي مسافر يضرب في الأرض، يتزوّد من البلد التي هو فيها بما يعود عليه نفعه في الدار التي هو ذاهب إليها، وإنّ زاد المسافر إلى تلك الدّار ـ وكلّنا مسافرٌ ـ الذي يتزوّد به، وذخيرته التي يذّخرها لزمن حاجته، إنّما هي تقوى الله ﷻ، وكلّما كان حظّ العبد من هذا الزاد أوفر، كان سفره أسهل وأسلم، وكان وصوله إلى دار الكرامة أرجى، وفي الحديث: «**تعرّف إلى الله في الرّخاء، يعرِفْك في الشدّة**»[1].

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «يعني أنّ العبد إذا اتّقى الله، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرّف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربّه معرفة خاصة، فعرفه ربّه في الشدّة، ورعى له تعرُّفه إليه في الرّخاء، فنجّاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربِّه، ومحبّته له، وإجابته لدعائه»[2].

ثم قال: «وأعظم الشدائد التي تنزل بالعبد في الدنيا الموت، وما بعده أشدّ منه إن لم يكن مصير العبد إلى خير، فالواجب على المؤمن الاستعداد للموت وما ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[3].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦٢٣)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٣٥٠/ ١٠٤٣).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ٣٥٤).

(٣) سورة الحشر.

فمن ذكر الله في حال صحته ورخائه، واستعدّ حينئذ للقاء الله ﷻ بالموت وما بعده، ذكره الله عند هذه الشدائد، فكان معه فيها، ولطَفَ به، وأعانه، وتولاّه، وثبّته على التّوحيد، فلقيه وهو عنه راض»[1].

قال زيد ابن أسلم في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾[2]، قال: يُبشَّر بذلك عند موته، وفي قبره، ويوم يُبعث، فإنّه لفي الجنّة، وما ذهبت عنه فرحة البشارة من قلبه[3].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٥٧).

(٢) سورة فصلت.

(٣) ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٣٥٨).

المبحث السادس

ذكر بعض الكتب المفيدة

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «وعليك بكتاب (منهاج المريدين) [١] فإنه يعلمك السلوك، فاجعله جليسَك ومعلمك، وتلمَّح كتاب (صيد الخاطر) [٢] فإنك تقعُ بواقعاتٍ تُصلِحُ أمرَ دينك ودنياك، واحفظ كتاب (جنة النظر) [٣] فإنه يكفي في تلقيح فهمِك للفقه، ومتى تشاغلتَ بكتاب (الحدائق) [٤] أطلَعَك على جمهور الحديث، وإذا التفتَّ إلى كتاب (الكشف) [٥] أبان لك مستورَ ما في الصحيحين من الحديث، ولا تشاغلَنَّ بكتب التفاسير التي صنفَتها الأعاجمُ، وما ترك (المغني) [٦] و (زاد المسير) [٧] حاجةً إلى شيء من التفاسير، وأما ما جمعتُه لك من كتب الوعظ فلا حاجة بعدها إلى زيادة أصلاً» [٨].

---

(١) لعلّه كتابه: «إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحين».

(٢) لابن الجوزي، في فنون مختلفة.

(٣) هو كتاب له في الفقه الحنبلي، اسمه الكامل: «جَنَّة النظر وجُنَّة الفِطَر».

(٤) هو كتاب له، في الحديث والزهديات.

(٥) هو له أيضاً، واسمه: «الكشف لمشكل الصحيحين».

(٦) هو كتاب له في التفسير.

(٧) وهو اختصارٌ له لكتاب «المغني»، يقع في ٤ مجلدات، واسمه الكامل: «زاد المسير في علم التفسير».

(٨) «لفتة الكبد» (ص ٥٥ ـ ٥٦).

بعد أن ذكر هذا العالم الناصح الكبير لابنه ما يجب عليه من معرفة خالقه وبارئه، وتعلم العلم النافع، والعمل بمقتضى ذلك للفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، مع ضرورة التحلي بالزهد والقناعة، واغتنام الأوقات في تحصيل ذلك مهما أمكنه. ذكر له بعض الكتب التي تعينه على بلوغ مراده.

وإنّ لهذه الوصيّة أهميّةً قصوى، وذلك لافتقار طالب العلم إلى الكتب من جهةٍ، فطالب العلم لا يمكن أن يستغني عن الكتب أبداً، إلاّ كما يستغني الحوت عن الماء!

فـ«لولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من فنون حكمها، ودوّنت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بذلك ما غاب عنّا، وأدركنا به ما بعُد منّا، وجمعنا إلى كثيرهم قليلَنا، وإلى جليلهم يسيرَنا، وعرفنا ما لم نكن لنعرفه إلاّ بهم، وبلغنا الأمد الأقصى بقريب رسومهم، إذا لحسر طلاب الحكمة، وانقطع سببهم إلى المعرفة»[1].

وقد ضرب السلف الصالح من ذوي الهمم العالية، أروع الأمثلة في الاهتمام بالكتب وتعظيمها، وصيانتها، فقدموا في سبيل ذلك النفس والنفيس.

«فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه، ولا بدّ من أن تكون كتبه أكثر من سماعه، ولا يعلمُ ولا يجمعُ العلمَ ولا يختلفُ إليه حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذّ عنده من الإنفاق من مال عدوّه، ومن لم تكن له نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من إنفاق عشّاق القيان، والمستهترين بالبنيان، لم يبلغ العلم مبلغا رضيّا، وليس ينتفع بإنفاقه حتّى يؤثر اتّخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللّبن على

(١) «تقييد العلم» للخطيب البغدادي (ص١١٨).

عياله، وحتّى يؤمّل في العلم ما يؤمّل الأعرابيّ في فرسه»[1].

فإنّ«طالب العلم مفتقر إلى الكتب كافتقاره إلى شيخٍ يعلّمه، فيأخذ العلم بالتلّقي عن الشيوخ والقراءة من الكتب أيضاً.

فليحذر طالب العلم أن يمنعه الشُّحُّ من الإكثار من اقتناء الكتب، فلا يستكثر ما يُنفقه في سبيل اقتناء الكتب، ولو استغرق ذلك مالاً كثيراً.

وقد ورد عن السلف الصالح في هذا عجبٌ، فهذا سهل بن محمد بن عثمان النحوي أبو حاتم السجستاني (ت٢٥٥هـ)، ورِث عن أبيه مائة ألف دينار، أنفقها في طلب العلم[2].

وهذا شعبة بن الحجاج بلغ به الحال من بذل المال في العلم أن باع طست أمّه، فقال رحمه الله: «من طلب الحديث أفلس، بعتُ طست أمي بسبعة دنانير»[3].

وهذا محمد بن الحسن قال: «ترك أبي ثلاثين ألف درهم، فأنفقت خمسة عشر ألفاً على النحو والشعر، وخمسة عشر ألف على الحديث والفقه»[4].

كما أن لكثرة الكتب، واختلاف مناهجها، وتباين اتجاهات أصحابها الفكرية والاعتقادية، دافعا آخر لضرورة الوصية المتعلّقة بها، فالكتب ليست على درجة سواء، فمنها النافعة المفيدة، ومنها السيئة الهدّامة المضِلّة!

قال بكر أبو زيد ـ رحمه الله ـ: «شرف العلم معلوم، لعموم نفعه، وشدة

---

(١) «كتاب الحيوان» للجاحظ (١/ ٥٥).

(٢) «البُلغة في تراجم أئمة النحو واللغة» (ص١٥١).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٢٠).

(٤) «تاريخ بغداد» (٢/ ٥٦٢).

الحاجة إليه كحاجة البدن إلى الأنفاس، وظهور النقص بقدر نقصه، وحصول اللذة والسرور بقدر تحصيله ولهذا اشتد غرام الطلاب بالطلب والغرام بجمع الكتب مع الانتقاء، ولهم أخبار في هذا تطول، وفيه مقيدات في خبر الكتاب يسَّرَ الله إتمامه وطبعه.

وعليه فأحرِز الأصول من الكتب واعلم أنه لا يغنى منها كتاب عن كتاب، ولا تحشر مكتبتك وتشوش على فكرك بالكتب الغثائية، لا سيما كتب المبتدعة، فإنها سُمٌّ ناقع»[1].

يقول الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ: «احذر أن تَضُمّ إلى مكتبتك الكتب التي ليس فيها خير، لا أقول التي فيها ضرر، بل أقول التي ليس فيها خير، لأنّ الكتب تنقسم إلى ثلاثة أقسام: خير، وشرّ، ولا خير ولا شرّ.

فاحرص أن تكون مكتبتك خاليةً من الكتب التي ليس فيها خير، هناك كتبٌ يقال أنها كتب أدب، لكنها تقطع الوقت وتقتله من غير فائدة، هناك كتبٌ غامضةٌ ذات أفكار معيّنة ومنهجٍ معيّن، فهذه أيضاً لا تدخل مكتبتك»[2].

والوصيّة بالكتب النافعة، هي سنّة أخذها الخلف عن السلف في كلّ العصور، فمن ذلك السؤال الذي وجهه أبو القاسم المغربي لشيخ الإسلام ابن تيمية، والذي كان سببا في كتاب: (الوصية الصغرى) يطلب فيه السائل وصية من شيخ الإسلام ببعض الكتب التي يمكنه الاعتماد عليها والانتفاع بمضمونها إذ قال: «...ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث، وكذلك في

---

(١) «حلية طالب العلم»، لبكر أبو زيد (ص٧٦).

(٢) «شرح حلية طالب العلم»، لابن عثيمين (ص ٢٠١).

غيره من العلوم الشرعية...»[1].

فأجابه شيخ الإسلام ابن تيمية قائلا: «وأمّا ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم فهذا باب واسع، وهو ـ أيضا ـ يختلف باختلاف نشء الإنسان في البلاد، فقد يتيسّر له في بعض البلاد من العلم، أو من طريقه ومذهبه فيه مالا يتيسر له في بلد آخر.

لكن جماع الخير أن تستعين بالله ﷻ في تلقّي العلم الموروث عن النبي ﷺ فإنّه الذي يستحق أن يسمى علماً، وما سواه إما أن يكون علما فلا يكون نافعا، وإما أن لا يكون علما وإن سمي به. ولئن كان علما نافعا فلا بد أن يكون في ميراث محمد ﷺ ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه»[2].

ثم قال: «وما في الكتب المصنّفة المبوبة كتابٌ أنفع من صحيح محمد بن إسماعيل البخاري، لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم، ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحِّر في أبواب العلم؛ إذ لا بدّ من معرفة أحاديث أخر، وكلام أهل الفقه، وأهل العلم في الأمور التي يختصّ بعلمها بعض العلماء، وقد أوعبت الأمّة في كلّ فنٍّ من فنون العلم إيعاباً، فمن نوّر الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلاّ حيرة وضلالاً»[3].

وفي زمننا هذا، يقول الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى: «عليك بالكتب المنسوجة على طريقة الاستدلال والتفقه على علل الأحكام، والغوص على أسرار

---

(١) «الوصية الصغرى» لابن تيمية (ص٢٩).

(٢) «الوصيّة الصغرى» (ص٣١٩).

(٣) المرجع السابق (ص٣٤٠).

المسائل، ومن أجلها كتب الشيخين: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وتلميذه ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى.

وعلى الجادة في ذلك من قبل ومن بعد كتب:

١ـ الحافظ ابن عبد البر (م سنة ٤٦٣هـ) رحمه الله تعالى وأجل كتبه «التمهيد».

٢ ـ الحافظ ابن قدامه (م سنة ٦٢٠هـ) رحمه الله تعالى، وأرأس كتبه المغنى».

٣ ـ الحافظ ابن الذهبي (م سنة ٧٤٨هـ) رحمه الله تعالى.

٤ ـ الحافظ ابن كثير (م سنة ٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى.

٥ ـ الحافظ ابن رجب (م سنة ٧٩٥هـ) رحمه الله تعالى.

٦ ـ الحافظ ابن حجر (م سنة ٨٥٢هـ) رحمه الله تعالى.

٧ ـ الحافظ الشوكاني (م سنة ١٢٥٠هـ) رحمه الله تعالى.

٨ ـ الإمام محمد بن عبد الوهاب (م سنة ١٢٠٦هـ) رحمه الله تعالى.

٩ ـ كتب علماء الدعوة ومن أجمعها «الدرر السنية».

١٠ ـ العلامة الصنعاني (م سنة ١١٨٢هـ) رحمه الله تعالى، لا سيما كتابه النافع «سبل السلام».

١١ ـ العلامة صديق حسن خان القنوجي (م سنة ١٣٠٧هـ) رحمه الله تعالى.

١٢ ـ العلامة محمد الأمين الشنقيطي (م سنة ١٣٩٣هـ) رحمه الله تعالى لا سيما كتابة: «أضواء البيان»[١].

وأزيد في هذا المقام:

---

(١) «حلية طالب العلم» (ص ٧٥ ـ ٧٧).

ـ الإمام العَلَم عبد العزيز بن عبد الله بن باز (م سنة ١٤٢٠ هـ) رحمه الله تعالى.

ـ العلامة الإمام المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني (م سنة ١٤٢٠ هـ) رحمه الله تعالى.

ـ العلامة الإمام الفقيه محمد بن صالح العثيمين (م سنة ١٤٢١ هـ) رحمه الله تعالى.

وكما أنّ طالب العلم يقتني هذه الكتب لنفسه، فإنّه قد يوَرِّثها لمن بعده، فكان حريّا به أن يحسن اقتناءها واختيارها، فإذا أمن على نفسه التمييز فيما يقتنيه بين النافع والضارّ، فليحذر وليحرص أن لا يُيَسِّر مثل هذه لغير مميِّز من بعده فيكون ذلك سبباً لضياعهم وفساد دينهم.

قال أبو نصر السجزي رحمه الله: «وليحذر تصانيف من تغير حالهم فإنّ فيها العقارب، وربّما تعذَّر الترياقي»[1].

(١) «رسالة السجزي إلى أهل زبيد» (ص ٢٣٤).

المبحث السابع

الوصيّة بحفظ حقوق الناس، ومراعاة عواقب الأمور

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «وأدِّ إلى كل ذي حق حقه، من زوجة أو ولد أو قرابة، وانظر كل ساعة من ساعاتك بماذا تذهب، فلا تُودِعْها إلا أشرفَ ما يمكن، ولا تهمل نفسك وعوِّدها أشرفَ ما يكون من العمل وأحسنه، وابعث إلى صندوق القبر ما يسرك يوم الوصول إليه، كما قيل:

يا من بدنياه اشتغل وغرّه طول الأمل

الموت يأتي بغتةً والقبر صندوق العمل

وراعِ عواقبَ الأمور يهُنْ عليك الصبرُ عن كل ما تشتهي وما تكره، وإن وجدتَ من نفسك غفلة فاحملها إلى المقابر وذكِّرها قربَ الرحيل، ودبِّر أمرك ـ واللهُ المدبرُ[1] ـ في إنفاقك من غير تبذير، لئلا تحتاج إلى الناس، فإن حِفظَ المال من

---

(١) من باب الخبر، لا على أنه ثابت لله عز وجل اسما من أسمائه الحسنى، والتي مدارها على التوقيف.

قال الشيخ عبد المحسن العباد ـ حفظه الله ـ: «وأمّا المدبّر فلا أعلم ما يدلّ على أنه من أسماء الله، وقد جاء وصف اله تعالى بالتدبير، كما قال عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ ، وقال: ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ﴾، والله سبحانه وتعالى المدبّر للأمر المتصرِّف في الكون كيف يشاء، لا إله إلاّ هو».

انظر: «قطف الجنى الداني» من مجموعة «الكتب والرسائل» (٤/ ٧٣).

الدين، ولئن تُخَلِّفَ لورثتك خير من أن تحتاج إلى الناس»[1].

هذه خاتمة الوصايا التي وجهها هذا العالم الجليل، والوالد الشفيق لابنه، فبعد أن وصّاه بالاشتغال بالمهمّات، والتحلي بالهمم العاليات، وصّاه بتأدية الحقوق إلى أهلها، والاهتمام بما أوجبه الله عليه تجاه كلّ فرد من أفراد الخلق، وهذا لازم العلم وثمرته، وعنوان الانتفاع بالعلم وبابه.

وخاصّة إذا عُلِم أنّ «طالب العلم والداعي إلى الله يُعَدُّ قدوةً في جميع تصرفاته، ولذا كان لزاما عليه أن يجعل ذلك نصب عينيه، وأن يسأل الله التوفيق في الأمور كلّها»[2].

وقد نفرّ الله سبحانه من عكس هذا فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾[3].

ولا ينبغي لصاحب الهمّة العلية، أن يشتغل بواجب عمّا هو أوجب منه، فضلاً على أن يشتغل بمستحبٍّ عن واجبٍ.

فقد قيل: «من شغله الفرض عن النّفل فهو معذور، ومن شغله النّفل عن الفرض فهو مغرورٌ»[4].

وإنّ من أوجب الواجبات على المرء، الاعتناء بأهله وولده وأهل قرابته، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا

---

(١) لفتة الكبد (١٢ ـ ١٣)

(٢) «معالم في طريق طلب العلم» (ص ١٥٩).

(٣) سورة الصف.

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٣٤٣).

﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢ ﴾[2].

وجاء في سنن الدارمي أنّ النبي ﷺ قال لعثمان ﷺ: «**يا عثمان إنّ لأهلك عليك حقا**»[3].

وعن جابر الخيواني قال: كنت عند عبد الله بن عمرو فقدم عليه قهرمان[4] من الشام وقد بقيت ليلتان من رمضان فقال له عبد الله: هل تركت عند أهلي ما يكفيهم قال: قد تركت عندهم نفقة فقال عبد الله: عزمت عليك لما رجعت فتركت لهم ما يكفيهم فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول**»[5].

ثمّ نبه هذا العالم الموصي ابنَه بالنظر في عواقب الأمور، وذلك قبل الدخول في أيِّ شيءٍ منها، فذلك أدعى للسداد، ومساعدٌ على الصبر.

قال ابن القيّم رحمه الله: «ملاحظة حسن العاقبة تعين على الصبر فيما تتحمله باختيارك وغير اختيارك»[6].

---

(١) سورة التحريم.

(٢) سورة طه

(٣) الدارمي في «السنن» (٢١٦٩).

(٤) القهرمان: هو كالخازِن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأُمور الرجل بلغة الفرس. انظر: «لسان العرب» (١٢/ ٤٩٦).

(٥) الحاكم في «المستدرك» (٨٥٢٦)، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٦) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٤).

والنظر في عواقب الأمور قبل فعلها، هو ميزة العقل الصحيح وعمله، كما قال ابن القيّم أيضاً: «وخاصة العقل النظر في العواقب، فأعقل الناس من آثَرَ لذَّةَ نفسه وراحته في الآجلة الدائمة، على العاجلة المنقضية الزائلة، وأَسْفَهُ الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللّذة العظمى، التي لا تنغيص فيها، ولا نقص بوجه ما، بلذّةٍ منقضيةٍ مَشُوبَةٍ بالآلام والمخاوف، وهي سريعة الزوال، وشيكة الانقضاء.

قال بعض العلماء: «فكّرتُ في سعي العقلاء، فرأيت سعيهم كلَّهم في مطلوب واحدٍ، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله، رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهمِّ والغمِّ عن نفوسهم، فهذا في الأكل والشرب، وهذا في التجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة، وهذا باللّهو واللّعب، فقلت: هذا المطلوبُ مطلوبُ العقلاءِ، ولكنّ الطرقَ كلَّها غير موصلة إليه، بل لعلّ أكثرها إنما يوصل إلى ضدِّه، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقاً موصلاً إليه بل لعل أكثرها إنما يؤثر إلى الإقبال على الله وحده ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء فإنّ سالك هذا الطريق فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء وإن فاته فاته كل شيء وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنى الوجوه، فليس للعبد أنفع من هذا الطريق ولا أوصل منه إلى لذّته وبهجته وسعادته، وبالله التوفيق»[1].

قال: و«في مراقبة العاقبة: زيادة استحضار المخوف وجعله نصب عينه

---

(١) «الداء والدواء»، لابن القيم (ص ٢٩٧).

بحيث لا ينساه فإنه وإن كان عالما به لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب وبين الخوف»[1].

وأما أهل الغرور فيغمض عينيه عن العواقب ويمشى الحال ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها وعسر عليها فطامها ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد[2].

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]، وقال: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[4].

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: «والمراد: العاقبة في الدنيا قبل الآخرة لأنه ذكر عقيب قصة نوح ونصره وصبره على قومه فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي عاقبة النصر لك ولمن معك كما كانت لنوح عليه السلام ومن آمن معه»[5].

---

(١) «مدارج الساكين» (١/ ٣٨٤).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (١/ ٨٢).

(٣) سورة هود، من الآية ٤٩.

(٤) سورة طه، من الآية ١٣٢.

(٥) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٨٥).



الخاتمة

الحمد لله الذي أعانني على إتمام هذا البحث على هذه الصّورة، فالفضل والمنّة له أولاً وآخراً.

﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1].

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ ﴾[2].

وبعد هذه الجولة النافعة ـ إن شاء المولى سبحانه ـ في خضَمٍّ وصيّتين عزيزتين مهمّتين، جاء ذكر إحداهما في القرآن الكريم، يقصّ الله علينا حِكَماً ودُرراً، لرجلٍ صالحٍ، وحكيمٍ عابدٍ زاهدٍ ناصحٍ، والأخرى حفظها لنا التاريخ، من رجلٍ عالمٍ من علماء المسلمين، فحلٍ من فحولها، محدّثٍ وفقيهٍ، وواعظٍ بليغٍ، كلاهما يوصي فيها ابنَه، قرّةَ عينه، وفلذةَ كبده، فكان حريّا بهما أن ينصحا في الوصيّة، ويجتهدا فيها.

يمكن القول أنّنا قد عرفنا بصورة مجملةٍ منهجيةَ العلماء في الوصيّة، ومنبعها واستمدادها، وأهمّ المواضيع التي تدور عليها.

---

(١) سورة القصص، من الآية ٧٠.

(٢) سورة سبأ.

فهذا ما منّ الله به، وسنحت به الخاطرة، وتوصّل إليه الفهم المتواضع، بل القاصر، في هذه العُجالة، فما كان فيه صواباً فمن الله، وما كان فيه من خطأ أو نقص فمني وما أبرّئ نفسي، إذ تلك سنة الله في بني الإنسان!

فالكمال لله وحده، والنقص والقصور واختلاف وجهات النظر من صفات بني البشر، وأسأل الله أن ينفعني بذلك، وينفع به من قرأه، فإنّه على كلّ شيء قدير، وبالإجابة جدير.

ومن النتائج التي أعانني الله ويسر لي التوصل إليها في هذا البحث:

١ـ الوصيّة هي أسلوب مهمّ من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، ومجيئها في القرآن الكريم، والسنّة المطهّرة، يدلّ على ذلك.

٢ ـ الوصيّة عند العلماء سنّة يأخذ بها الخلف عن السلف.

٣ ـ أهميّة وصايا العلماء، تابعةٌ لأهميّتهم ومكانتهم التي أعطاهم الله ﷻ.

٤ ـ العلماء هم ورثة الأنبياء، فلهم من لزوم الاعتناء بوصاياهم بقدر ما لهم من هذا الميراث النبوي.

٥ ـ العلماء يوصون الناس بما أوصى به الله تعالى ، وبما أوصى به رسوله ﷺ.

٦ـ الوصيّة تكون بالأصول العظيمة والمهمّات الخطيرة في حياة المسلم، إذ المقصود من الوصيّة زيادة الاعتناء بالأمر الموصى به، وقد تتعلّق الوصيّة بشيء مما ليس من المهمات أو الأصول من جهة العموم والإطلاق، وإن كانت كذلك من جهة التعيين والتخصيص، وذلك بحسب الحاجة، إما في زمن ورود الوصيّة، أو في ذات الشخص الموصى بها.

٩ ـ أهم الوصايا على الإطلاق، وصيّة العباد بالتوحيد والعبادة الخالصة،

والوصيّة بالطاعة وترك المعصية.

١٠ ـ تتنوّع وصايا العلماء بحسب تنوّع معاملات الناس، فيوصي العلماء بأهم الأمور في معاملة الإنسان لربّه جلّ وعلا، ويوصون بأهمها في معاملة الإنسان لنفسه، وبأهمها في معاملة الإنسان لغيره من الناس.

هذا وأسأل الله عزّ وجلّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يجعلني وجميع المسلمين من القائلين بالحقّ، والعاملين الموصين به، وأن يُحسن لنا جميعاً النيّة والقصد والعاقبة، إنّه حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه:

أبو عبد المحسن علي بن محمّد درّار الجزائري

المدينة النبوية ١٤٣٠هـ



قائمة المصادر والمراجع

* **أدب الإملاء والاستملاء.**

السمعاني: أبو سعيد عبد الكريم بن محمد، تحقيق: أحمد محمد عبد الرحمن محمد محمود، الطبعة الأولى، مطبعة المحمودية، جدة، (١٤١٤هـ).

* **إعلام الموقعين عن ربّ العالمين.**

ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٢٣هـ).

* **إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان.**

ابن قيّم الجوزية: شمس الدين، تحقيق: علي حسن بن عبد الحميد الحلبي، الطبعة الثالثة، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٢٨هـ).

* **اقتضاء العلم العمل.**

الخطيب البغدادي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الخامسة، المكتب الإسلامي، دمشق - بيروت، (١٤٠٤هـ).

* **أيسر التفاسير لكلام العليّ الكبير.**

أبو بكر جابر الجزائري، الطبعة الثالثة، راسم للدعاية والإعلان، السعودية، (١٤١٠هـ).

*** البلغة في تراجم أئمة النَّحو واللغة.**

مجد الدّين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد المصري، الطبعة الأولى، دار سعد الدين، دمشق، (١٤٢١هـ).

*** تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها وواردها.**

الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، تحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (١٤٢٢هـ).

*** تاج العروس من جواهر القاموس.**

السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: ضاحي عبد الباقي، الطبعة الأولى، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (١٤٢٢هـ).

*** تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي.**

أبو العلاء محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤١٠هـ).

*** تذكرة الحفاظ.**

الذهبي: أبو عبد الله شمس الدين محمد، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، مكتبة ابن تيمية، (بدون).

*** تفسير البحر المحيط.**

أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤١٣هـ).

* **تفسير البغوي (معالم التنزيل).**
البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود، تحقيق: محمد عبد الله نمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة، السعودية، (١٤١١هـ).
* **تفسير التحرير والتنوير.**
محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، (١٩٨٤م).
* **تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير) ـ (مفاتيح الغيب).**
محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري، الطبعة الأولى، دار الفكر، (بدون)، (١٤٠١هـ).
* **تفسير القرآن العظيم.**
أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، مؤسسة الريان، (بدون).
* **تقريب الزهد والرقائق لابن المبارك.**
محمد خلف سلامة، (بدون).
* **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد.**
أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرّ النمري القرطبي، تحقيق: محمد التائب وسعيد أحمد أعراب، وزارة الشؤون الإسلامية بالمغرب العربي، (بدون)، (١٣٩٤هـ).
* **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد.**
سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: أسامة بن عطايا بن عثمان العتيبي، الطبعة الثانية، دار الصميعي، السعودية، (١٤٢٩هـ).

*** تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.**

عبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتناء: سعد بن فوّاز الصميل، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٢٢هـ).

*** جامع بيان العلم وفضله.**

أبو عمر يوسف بن عبد البرّ، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤١٤هـ).

*** جامع البيان عن تأويل آي القرآن.**

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، دار هجر، القاهرة، (١٤٢٢هـ).

*** جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم.**

ابن رجب: أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الحنبلي البغدادي ثم الدمشقي، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، الطبعة السادسة، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٢٧هـ).

*** الجامع الكبير (سنن الترمذي).**

الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد اللطيف حرز الله، الطبعة الأولى، الرسالة العالمية، دمشق، سوريا، (١٤٣٠هـ).

*** الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان.**

القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (١٤٢٧هـ).

* **الجرح والتعديل.**

ابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن الرازي، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، الطبعة الأولى، دار الفاروق الحديثية، مصر، مصورة عن: دائرة المعارف العثمانية، الهند، (١٣٧١هـ).

* **حلية طالب العلم.**

بكر بن عبد الله أبو زيد، الطبعة الثالثة، دار ابن الجوزي، السعودية، (بدون).

* **الحيوان.**

الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، (بدون).

* **الداء والدواء (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي).**

ابن قيّم الجوزية، تحقيق: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، الطبعة التاسعة، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٢٥هـ).

* **الدّرّ المنثور في التفسير بالمأثور.**

جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، دار هجر، القاهرة، (١٤٢٤هـ).

* **الرسالة التبوكية.**

ابن قيّم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، تحقيق: أبي أسامة سليم بن عيد الهلالي، الطبعة الثانية، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، (١٤٢٩هـ).

* **رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الردّ على من أنكر الحرف والصوت.**

السجزي: أبو نصر عبيد الله بن سعد بن حاتم الوايلي، تحقيق: محمد با كريم

باعبد الله، الطبعة الأولى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، (١٤١٣هـ).

* **روضة المحبين ونزهة المشتاقين.**

ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدّمشقي، تحقيق: يوسف علي بديوي، الطبعة الثانية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، (١٤٢٦هـ).

* **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين.**

النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي، تحقيق: ماهر ياسين الفحل، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق، (١٤٢٨هـ).

* **سنن أبي داود.**

أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف، الرياض، (١٤٢٧هـ).

* **سنن ابن ماجه.**

ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض، (بدون).

* **سنن النسائي.**

النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، الرياض، (بدون).

* **سير أعلام النبلاء.**

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، الطبعة الحادية عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٧هـ).

* شرح حلية طالب العلم.
محمد بن صالح بن عثيمين، تحقيق: أبي مالك محمد بن حامد بن عبد الوهاب، دار البصيرة، الإسكندرية، مصر، (بدون).
* صحيح البخاري.
البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤٢٦هـ).
* صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان.
الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (١٤١٨هـ).
* صحيح مسلم.
مسلم بن الحجاج: أبو الحسين القشيري النيسابوري، الطبعة الثانية، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، (١٤١٩هـ).
* صفة الفتوى والمفتي والمستفتي.
أحمد بن حمدان الحراني الحنبلي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، دمشق، (١٣٨٠هـ).
* العدّة شرح العمدة في فقه إمام السنّة أحمد بن حنبل الشيباني.
بهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي، الطبعة الأولى، شركة الرياض للنشر والتوزيع، (١٤٢١هـ).
* فتح المجيد لشرح كتاب التوحيد.
عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، تحقيق: الوليد بن عبد

الرحمن آل فريان، الطبعة الأولى، دار عالم الكتب، السعودية، (١٤١٧هـ).

* **الفقيه والمتفقه.**

الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، تحقيق: أبي عبد الرحمن عادل بن يوسف العزازي، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٣٠هـ).

* **الفوائد.**

ابن قيّم الجوزية: شمس الدّين محمد بن أبي بكر، تحقيق: الشحات أحمد الطحان، الطبعة الأولى، مؤسسة أم القرى، مصر، (١٤٢٤هـ).

* **قواعد في التعامل مع العلماء.**

عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الطبعة الأولى، دار الورّاق، (بدون)، (١٤١٥هـ).

* **القول المفيد على كتاب التوحيد.**

محمد بن صالح العثيمين، الطبعة الثانية، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٢٤هـ).

* **كتاب الزهد.**

عبد الله بن المبارك المرذوي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، (بدون).

* **لسان العرب.**

ابن منظور، اعتناء: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، الطبعة الثانية، إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (١٤١٨هـ).

* **لفتة الكبد إلى نصيحة الولد.**

ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن القرشي البغدادي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (١٤٠٧هـ).

*** مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية.**

جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، (١٤٢٥هـ).

*** مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.**

ابن قيّم الجوزية: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدّمشقي، (بدون).

*** المستدرك على الصحيحين.**

أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي، الطبعة الأولى، دار الحرمين، مصر، (١٤١٧هـ).

*** المسند.**

أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، دار الحديث، القاهرة، (١٤١٦هـ).

*** مسند الإمام أحمد بن حنبل.**

أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وجماعة، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (١٤٢٩هـ).

*** مسند الدارمي (سنن الدارمي).**

الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الطبعة الثانية، دار المغني، السعودية، (١٤٣١هـ).

*** المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي.**

أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، الطبعة الخامسة، المطبعة الأميرية، القاهرة، (١٩٢٢م).

* **المصنف.**

أبو بكر عبد الرزاق بن الهمام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، (١٤٠٣هـ).

* **معالم في طريق طلب العلم.**

عبد العزيز بن محمد بن عبد الله السدحان، الطبعة الثالثة، دار العاصمة، السعودية، (١٤٢٠هـ).

* **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة.**

ابن قيّم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، تحقيق: علي حسن عبد الحميد الحلبي، الطبعة الأولى، دار ابن عفان، السعودية، (١٤١٦هـ).

* **مفردات ألفاظ القرآن.**

الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق، (١٤١٢هـ).

* **مقاصد سورة البقرة.**

عبد المالك بن أحمد رمضاني، الطبعة الثانية، (بدون)، المدينة المنورة، (١٤٢٨هـ).

* **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.**

النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف الدمشقي، تحقيق: خليل مأمون شيحا، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (١٤١٤هـ).

* **الموافقات.**

الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولى، دار ابن عفان، القاهرة، (١٤٢٤هـ).

* **الموطأ.**

مالك بن أنس، تحقيق: بشار عواد معروف، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، (بدون)، (١٤١٧هـ).

* **النهاية في غريب الحديث والأثر.**

ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، إشراف: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، الطبعة الخامسة، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٣٠هـ).

* **نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار.**

محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد صبحي حسن حلاق، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي، السعودية، (١٤٢٧هـ).

* **الوصيّة الصغرى.**

شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، تحقيق: محمد بن إبراهيم الحمد، الطبعة الأولى، دار ابن خزيمة، السعودية، (١٤٢٤هـ).

قائمة الموضوعات